محيي الدين جاويش

يسرا

قصص

تقديم فتحي العشري

الطبعة الأولى يوليه 2020

بطاقة الكتاب

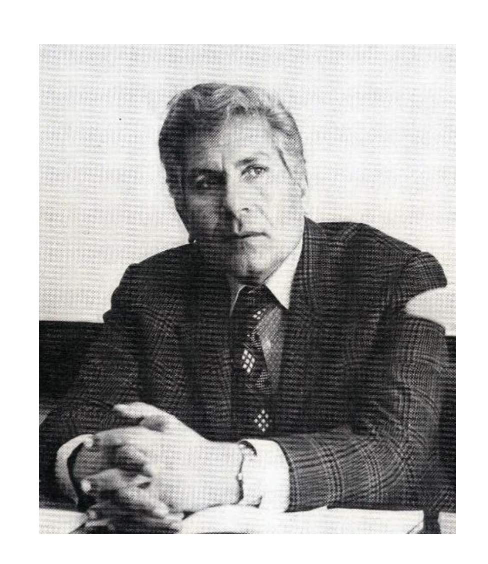
عنوان المؤلف	يسرا
المؤلف	محى الدين جاويش
رقم الإيداع القانونى	11599 - 2020
الترقيم الدولى	978-977-6835-01-6
رقم الإصدار الداخلى	628 الطبعة الأولى يوليه 2020
عدد الصفحات	104 صفحة
المقاس	14X20
تصميم الغلاف	أحمد الحسنى
الرسومات الداخلية	رحاب محمد



إهـداء

يوسف إدريس

رائد القصة القصيرة



مقدمة بقلم : فتحى العشرى

هذه المجموعة القصصية وكتابات جديدة وواثقة

انتقل الكاتب القصصى محيى الدين جاويش من الرومانسية في مجموعته القصصية الأولى "صباحات الياسمين" المنشورة في "دار الهلال" إلى شمولية القص، متنقلاً بين الواقعية والرمزية دون أن ينسى الرومانسية..

"قصص قصيرة متنوعة.. أسماء القصص تتراوح بين كلمة واثنتين وثلاث كلمات.. هذه الأسماء تحمل اسم إنسان (يسرا، محمود، راقص التنورة، عازف التشيللو) أو طائر (الرجل والنورس) أو مكان (واحة النعوش، الغرفة 39، من المقبرة) أو حيوان (قط) أو جماد (الجرس، صاحب الحذاء الأخضر، قبعات، خلخال أزرق)، أو الطبيعة (السماء تمطر جبناً) أو الزمان (لقاء، مخاوف ليلية).

مضامين هذه القصص القصيرة تنصب على الإنسان والحيوان والجماد والطيور والحشرات والطبيعة والرقص والغناء والزمان والمكان، وموضوعاتها تدور حول الحياة والموت والقتل والإعاقة والهوس والهواجس والجنون والخوف والرعب والهلع..

وأبرز الأمثلة على ذلك قصة "أحلام قعيدة" عن الفتاة المعوقة الرقيقة، وقصة "الرجل والنورس" عن الرفق بالطيور وليس فقط بالحيوان، وقصة "راقص التنورة" وكذلك قصة "عاز التشيللو" عن حالة الوجد والتوحد والصوفية، وقصة "صاحب الحذاء الأخضر" وكذلك قصة "الخلخال الأزرق" وقصة "لقاء" عن الهوس الذى يصل إلى حد الجنون، وقصة "مخاوف ليلية" عن الهواجس والحالات النفسية المريضة، وقصة "السماء تمطر جبناً" عن التخيلات والتهيؤات، وقصة "السقوط للأعلى" عن الظلم، وقصة "من المقبرة" عن البخل..

تعتمد أغلب قصص هذه المجموعة القصصية على الصدفة والمفاجآت والنهايات السعيدة والحزينة وتصور هذه القصص العودة للطفولة، وحميمية العلاقة بين الإنسان والحيوانات الأليفة والطيور والأغنام، وحب الريف والحقول، والمقارنة بين القرية والمدينة، والفارق بين الموت الطبيعى والقتل العمد، والتطلع إلى الصحراء والأشجار والنخيل، ومصادفة العواطف العابرة، ومرض التوحد، والإيمان، والخلاص بالله.

ونتوقف عند بعض قصص هذه المجموعة المتنوعة:

قصة "راقص التنورة" مثلاً تعود إلى الماضى الذى لم يعد موجوداً. أو أنها كتبت في الزمن الماضى فالكاتب يتحدث عن تمثال رمسيس في قلب الميدان والذى نقل إلى مكان آخر..

وقصة "واحة النعوش" تستشرف المستقبل الذى أصبح واقعاً، فهى تتحدث عن مرض وبائى أشبه بفيروس كورونا، ونتيجة لتفشيه تحول صناع الأقفاص في الواحة إلى صناع نعوش ونصحوا بالدفن داخلها حتى تحاصر العدوى..

وقصة "قبعات" الغريبة والمختلفة تماماً عن السياق العام للمجموعة، وهى أقرب إلى الفانتازيا من الواقعية التي غلفت وميزت المجموعة..

وقصة "الغرفة 39" تكاد تكون الوحيدة التي لجأت إلى الحوار بجانب السرد والقص والحكى.. ولكنها قصة مختلفة أقرب إلى القصص البوليسية ذات النهايات الغريبة وغير المتوقعة ولذلك هي قصة خارج الإطار هي الأخرى..

وقصة "موت صحفى" التي تتضمن أكثر من قصة حول الحياة والموت والمصادفات والملابسات العجيبة حقاً.. وهى تدور في فلك قصص أخرى مثل "قبعات" و"قاتل" و"عم محمود"..

ولأن كاتب هذه القصص القصيرة خريج كلية اللغة العربية جامعة الأزهر، فهو متمكن لغوياً، يكتب بالفصحى الأكاديمية، ولأنه صحفى يكتب الفصحى الدارجة، لغته قديمة وحديثة معاً، عباراته مهجورة وسائدة، كلماته قاموسية وجديدة ومطروحة، أسلوبه سهل ممتنع وعباراته قصيرة أحياناً وطويلة أحياناً أخرى تصل إلى ثلاثين كلمة دون توقف، دليل على الاسترسال والإنطلاق وامتلاك ناصية السرد والقص والحكى.

ولكى تبين هذه الكلمات الصفات والمواصفات اللغوية والأسلوبية في تلك المجموعة القصصية المتميزة، نلتقط بعض الكلمات:

ترقبنا بدلاً من تنظر إلينا.. تبرح بدلاً من تترك.. الركض بدلاً من العدو أو الجرى.. قطنا بدلاً من سكنا.. لفافة تبغ بدلاً من سيجارة.

وكذلك: ركل، مرقت، قداحة، تقرع، رابحهم، الحتف، يتهدل، مصفد، ينسل، مرق، قرميد، أفعوانى، أردفت، النوافير، الأعراس..

وتركيبات مثل:

تلبك عصبى، بقعة السماء، بقعة داكنة، رشفت عليه، قضوا في الحرب، رهاب المرتفعات ، لباس جصى، لا قط صوت، قابس الضوء، هاتف نقال

ويتميز كاتب هذه المجموعة القصصية بدراساته الدقيقة للشخصيات التي يلتقطها ويتناولها ويغوص في جنباتها مستخلصاً ما خفى في داخلها، ثم يعكف على وصفها وتظليلها وطرحها في صورة خاصة وثوب جديد من تصوره وإبداعه.

إلى المسافرين والغائبين والغرباء الذين لا يعرفهم أحد ..

إلى الصغار والمجانين والمرضى الذين يخوضون معركتهم في صمت..

إلى العجائز والحالمين والبسطاء وعابري السبيل..

إلى الأماكن القديمة والطرق المهجورة ..

إلى الشعر والموسيقى والمقاهي التي لا تخجل من أغانيها..

إلى الصابر على البلاء دون جزع..

إلى الحرة التي قرصها الجوه فلم تأكل بثديها ..

إلى الذين طحنتهم الحياة بما فيه الكفاية ..

إلى الخير الذي خسر مع الشر بعض معاركه ..

يسرا..!

لا تغيب جارتي الصغيرة يسرا عن ذاكرتي أبداً ..... نصف وجهها الذي يطل بخجل من خلف الباب .. ضحكتها الصافية جداً حين أفاجئها بشئ ما هزلي دون أن يلاحظه غيرها أحد .. كانت خجولة لا تحب الاقتراب ومع هذا كنا صديقين حميمين ...

ترى كيف أصبحت الآن ..؟

هل تغيرت لكنتها الطفولية وأصبحت تنطق اسمي بشكل صحيح..؟ لا أدري فأنا لا تتاح لي معرفة هذا في الوقت الحاضر ... أنا لم أرها منذ سنوات ... منذ أن شعرت بالحزن حين عثروا عليها بسرعة أثناء لعب "الغميضة" فخبأت نفسها في الموت ورحلت إلى الله دونما بكاء **..**



قط

على أريكة ذات لون زيتي داكن يتمدد قطٌّ خجول ذو فرو كثيف.. يوارب عينيه وهو مستلقٍ باسترخاء مراقباً سيدة المنزل وهي تروح وتجئ أمامه.. القط خجولٌ جدا.. فاقدٌ للثقة.. غيرُ قادرٍ على التعامل حتى مع أقرانه.. انعزاليٌ إلا مع أصحاب البيت.. لكن راحته وحريته واطمئنانه تتضح تماما.. بل وتتمُ حين يكون بجوار صاحبته !

القط الذي يعيش في المنزل منذ خمس عشرة سنة يكوّن مشاعر متباينة تجاه رواد البيت.. فهو يتلصص بفضول حين يظهر أناس غرباء لم يرهم من قبل.. و يختبئ مذعورا حين تتكاثر الصيحات المرحة للأطفال والنسوة في الأرجاء.. ويجلس ممدا في مكان قريب وقت الزيارات المعتادة لصديقات سيدته.. القط الخائف دائماً لا يخرج نهائياً خارج المنزل ولا يقترن ببني جنسه حتى للتزاوج.. ولا يملك الفضول الغريزي الذي تخلق به القطط للخروج والبحث واكتشاف العالم الغامض خارج المنزل!

علاقة السيدة بقطها حميمية جداً.. حبها له جارف.. تحنانها عليه لا يفتر.. حرصها على مزاجه لافت.. لا تقبل أن يعامل قطها بغير توقير.. لا تطيق السخرية منه.. تسهر حزينة حين تصيبه علة.. وتلقاه بلهفة عظيمة بعد كل غياب! أولادها يتندرون دائماً على ذلك حين يتحدثون عن "شقيقهم" ذي الفراء والذيل الذي استأثر بالنصيب الأكبر من حب الأم ورعايتها !

أمام عيني القط – وككل يوم – تواصل السيدة أعمالها المنزلية.. وهو يرقبها بعينيه المواربتين.. يغفو ويصحو باطمئنان.. وحين تمد كفها وتمسح على رأسه يتمطى ويعلو هريره.. جلست بجواره على الأريكة تستقبل فرحة مكالمة من حفيدها الذي سيزورها نهاية اليوم.. كانت متحمسة جدا للضيف الصغير.. تتعجل حضوره.. تستخرج اللعب التي يحب من مكان تخزينها.. تجهز له المساحة الكافية للركض واللعب ..

القط يرقب كل ما تفعله سيدته من بين جفنيه المفتوحين قليلا.. حين امتدت يدها إلى إناء طعامه رفع رأسه منتبها ونزل من فوق الأريكة.. تقدم نحوها يموء بتودد.. مسح رأسه بقدمها وحك جسده بساقها.. رمقها بعينين تفيضان دهشة ثم ثبت نظره على إناء طعامه الذي وضعته على حافة النافذة !

صوتها وهي تضحك مع حفيدها.. تجاهلها الذي رآه متعمدا.. إناؤه المفضل الذي أزيح من مكانه لإتاحة مساحة أوسع للهو الطفل الزائر.. كل ذلك حفز بداخله غريزة الأثرة البرية.. بعثها من مكمنها الخفي فانتصب ذيله وأخذ يموء.. فيما ضحكات السيدة - التي انصرفت عنه تماما - ودعاباتها مع الحفيد تتواصل.. احتدت نبرة المواء.. قفز على طاولة الطعام لكي يكون أكثر وضوحاً أمام ناظري سيدته المنهمكة بالحركة والحديث عبر الهاتف.. زاد التجاهل غيظه.. أججت سعادتُها كراهيتّه للضيف المنتظر.. ربض على الأرض متربصاً بقدمي سيدته الحافيتين وهما تغوصان في أهداب سجادتها الممتدة في البهو الرئيسي للمنزل.. كانت عضلاته تتقلص وأظفاره الحادة تخرج من مكامنها كلما اقتربت منه القدمان المرمريتان.. وحين أصبحتا أمامه مباشرة وثب على إحدى القدمين.. التف حولها بجسمه العضلي يخمشها بعنف ويغرس أنيابه.. دوت صرخة ألم عنيفة تردد صوتها في البهو.. فر القط مذعوراً.. اختبأ في مكان غير معلوم تاركاً قدم سيدته تنضح دما وأنفاسها تتقطع تحت وطأة مفاجأة الهجوم!

في مساء ذلك اليوم.. كان الحفيد وجدته يلهوان جلوسا على الأرض بدمى الحيوانات المفضلة لديه.. فيما يلعق القط المدلل قدم سيدته المصابة وهو يموء نادماً.. ويتطلع نحوها بعينين زرقاوين تفيضان حزنا.. دون أن يعرف أحدٌ أبداً أنه المدان بهذا الجرم!

أحلام قعيدة

لم أزل أذكرها!

تلك الفتاة التي جاءت مع جدها من مكان ما.. وقطنا في البيت القديم المواجه لمدرستي..

لم تعجبني تلك النظرات التي كانت تتابعنا بها وهي مستلقية على كرسي خلف النافذة.. ترقبنا ونحن نلعب الكرة في ملعب المدرسة بعد انتهاء اليوم الدراسي.. نظراتٌ غريبة! ظننتُ أنها ترغب في اللعب معنا خاصة أن السن متقاربة.. لكنها لا تجد جرأة المبادرة! بادرت لدعوتها:

"انزلي والعبي معنا! انظري.. معنا بناتٌ أيضا!"

إلا أنها أغلقت النافذة في وجه طلبي! تمنيت لو تأتي طالبة اللعب معنا يوما فأكسر لها انفها العالى!

شيئا فشيئا بدأت تثور بداخلي أسئلة حول هذه الفتاة التي لا أراها إلا في هذا المكان.. لماذا لا تلعب أمام البيت؟ لماذا لا تشتري شيئا ما؟ لماذا لا تذهب إلى أي مكان؟ ولا تصاحب أي أحد؟ ولماذا لا أراها إلا في هذا المكان.. نأتي صباحا وهي جالسة ونعود إلى بيوتنا وهي لم تبرح مكانها؟

يراودني شعور غريب بأن تلك الفتاة كانت تراقبني أنا.. أنا بالذات! أراها وأنا في طابور المدرسة.. وسط عشرات الصفوف من التلاميذ والبيت في الجهة الأخرى من الشارع وأشعر كأن عينيها متجهتان نحوي بدقة وتَرَصُّد!

مضت عدة أشهر.. وجاءت إجازة نصف العام.. وزاد ترددنا على ملعب المدرسة لنلعب الكرة في ملعب المدرسة نظرا لقرب بيوتنا منها كما أنها كانت هي المكان الذي يجتمع فيه كل أطفال الشارع للعب والركض لكبر مساحته كما أنه لم يكن حوله سور .

ذات يوم.. ركل أحدهم الكرة بقوة فطارت بعيدا وارتطمت بأحد أعمدة الإنارة وارتدت لتسقط في نافذة الفتاة التي تراقبنا.. مرقت فوق رأسها مباشرة! الغريب أنها لم تحاول صدَّ الكرة رغم استطاعتها ذلك.. والأغرب أنها لم تحد بنظرها عنا.. ثم تراجعت للخلف وأغلقت النافذة!

ارتبكنا.. للحظاتٍ لم ندرِ ماذا نفعل! اقترحتُ عليهم أن أذهب لأطلب الكرة من أهل البيت.. عبرت الشارع أفكر في كلمات اعتذار مقبولة لصاحب البيت.. صعدت السلم وأنا أتهيأ لغضب سينفجر في وجهي مع فتح الباب.. البيت ذو الطابقين قديمٌ جدا وهادئٌ لأقصى حد.. سرى بداخلي خوفٌ.. تسارعت خطواتي.. لم تطال يدي مفتاح الجرس.. فطرقت الباب!

طرقاتٌ متسارعة! ما عدت منشغلا بصاحب البيت.. تبخر تفكيري فيما سوف يقول أو يفعل! هذا البيت مخيف!

لم يقطع طرقاتي إلا انفتاح الباب! شيخ ذو شعر أشيب ولحية بيضاء طويلة يرتدي جلباباً أبيض.. يبدو أنه جد الفتاة! تملكني صمتٌ مفاجئ.. ماذا أقول؟! الجد صامتٌ.. يحدق في بنظرات غريبة.. لم تبرح عيناي يديه اللتين كانتا ساكنتين بجواره حتى لا أفاجأ بإحداهما تهوي على وجهي! الرجل لا ينطق.. ولا يوبخني كما كنت أتوقع! لم أجد ما أقوله! الموقف مربك جدا.. بدأت أستجمع بعضاً من شجاعتي وأنتبه إلى ماجئتُ من أجله! طلبت منه - معتذرا - أن يعطيني الكرة التي سقطت في شرفته..

عيناي لا تبارحان يديه اللتين بدأتا تتحركان بهدوء.. تراجعت إلى الخلف بقدر ما تحركت يداه.. وضع يده في جيبه.. نظر إلى شئ وراءه ثم عاد ينظر إلي وهو يبتسم! أنا خائف جدا.. لا أفكر الآن سوى في شيء واحد.. أن أركض هاربا! تراجعت بضع خطوات وقبل أن أقفز قفزتي الأولى فوق درجات السلم.. كانت يد العجوز تلتقطني كقط صغير! حملني تحت ذراعه ودخل بي البيت وأغلق الباب وراءه !

كنت على يقين - وأنا معلق في الهواء - أنني في طريقي نحو شيئ بشع! هذا الرجل لن يرحمني! ربما لن أعود للحياة من جديد! كل ذلك ولم أصرخ.. لم أتملص.. لم أحاول الهرب! هل شغلني خوفي مما سيحدث عن خوفي مما يحدث الآن! ربما.. لا أدري.. لكن لساني انعقد.. واحتبست أنفاسي بداخلي!

وضعني الرجل برفق على مقعد كبير وجلس أمامي على ركبتيه.. مسح بيديه شعري ووجهي المتعرقين.. لم تنطفئ نظرة الذعر في عيني.. حرك يده ثانية ووضعها في مخبأة الجلباب.. انسحق قلبي.. انتظرت أن تخرج ومعها شيئ رهيب.. ربما سكين.. بهدوءٍ أخرج يده من جيبه وناولني بضع قطع من الحلوى.. ثم قبلني واختفى داخل إحدى الحجرات! عاد مع حفيدته التي تراقبنا.. يدفع كرسيها ذي العجلات!! انتفضتُ من هول المفاجأة.. سقطت من يدي قطع الحلوى.. اقتربت خطوتين من الفتاة.. كانت أجمل شيئ يمكن أن يراه المرء في حياته.. ظهورها ملأ أركان البيت المعتم نوراً ونشر السعادة في ربوعه الكئيبة وحفتنا السكينة والأمان.. لم تكن ملامحها - وهي ترقبنا - من النافذة بمثل هذا الوضوح.. ما زال لساني معقودا.. أنظر إليها وإلى كرسيها المعدني.. تعصف برأسي إجابات كل التساؤلات الكثيرة التي طالما راودتني!

مدت يدها الرقيقة وناولتني الكرة التي كانت تضعها على ركبتيها.. الكرة المتسخة تركت آثارها على ملابسها النظيفة.. أردت أن أمد يدي لأمحو عنها ما أحدثته كرتنا من ارتباك.. لكنني لم أفعل.. حملتُ كرتي ونزلت شاردا.. أفكر في الألعاب التي يمكن أن نلعبها ونحن جالسين!



الجرس

وقفت سائحتان أوربيتان تلتقطان الصور التذكارية أمام سور حجري قديم، رُشِقَتْ عليه بالكامل أسياخ حديدية مدببة، تظهر من خلفها قامات أشجار ترتفع عنه كثيراً، ولأنها لا تلقى العناية اللازمة فقد تشابكت أغصانها بشكل كثيف، حتى تلك التي ماتت تلتصق بجاراتها بكل حميمية! الأشجار التي ترتفع كثيراً عن السور تتكاثر فيها أعشاش فرّخت أجيالاً من الطيور. السور يشبه أسوار البيوت الفيكتورية العريقة التي حولتها عجلات الزمن إلى شواهد على حقب غابرة. في المنتصف تماما - حيث تقف السائحتان - يرتفع فوق السور برج من قرميد أحدث بناءً من السور، يحمل في منتصفه ساعة جرسية وضعت بإتقان، تعلوها قمة مخروطية حديدية، في كل يوم تدق الساعة الرابضة في منتصف البرج مرة واحدة، ودقتها عبارة عن ثلاث طرقات لمطرقة حديدية ترتطم بكل قوتها بإطار نحاسي سميك فيصدر صوت جليٌ فخم يفزع الطيور وينتشر في دوائر تتسع فيُسمع من مسافات بعيدة.

في الجهة المقابلة تماما، وقف رجل بشعر أشيب ولحية مهملة بيضاء يرتدي بنطالاً ومعطفًا داكنين لكنهما ليسا من لون واحد، يدخن لفافة تبغ أمام دكان عتيق لبيع الحبال تنخفض أرضه عن مستوى الشارع العام. ملامح الرجل تبدو عليها إشارات حزن مقيم.. مجرد نظرة واحدة تجعلك تسأل: ترى ما الذي حل به؟! حاجبان كثيفان ينكسران على عينين بنيتين تبدوان دائما وكأنهما على وشك البكاء، فوقهما - على الجبين - بقعة داكنة من أثر الصلاة، وفمٌ يحاول أن يطبق شفتيه على بعضهما بإحكام لكن التجاعيد لاتعطيه فرصة لذلك، يدٌ ترتعش رعشة خفيفة منتظمة، ظهر منحنٍ وقدمان صغيرتان لكنهما تحملانه بثبات! منذ نحو نصف ساعة تقريباً والرجل يقف شاخصاً بعينيه إلى الساعة الجرسية، لا يصرفهما عنها إلا لينظر في ساعة يده! بين الرجل وباب الدكان الذي لم يفتح بشكل كامل مسافة قدمين تقريباً، من "الضلفة" المفتوحة تظهر على أحد الجدران صور عائلية غير ملونة كبيرة الحجم، تتناثر من حولها صور صغيرة لأطفال ربما صاروا شبابا الآن، وبضع صور باهتة لأشخاص بملامح هادئة يرتدون زياً عسكرياً.. تحت الصور مصحف كبير مفتوح يحمله ذراع خشبي سميك علقت مسبحة مستهلكة على نتوء بارز في أحد جوانبه.

أشعل الرجل قداحته ثم رفعها إلى مستوى وجهه وقرَّبَها منها فمه المطبق على لفافة تبغ يسحب من خلالها الهواء إلى رئتيه، ليساعدها على الاشتعال، ثم يزفزه خارج صدره دخانا رماديا كثيفا.

نظر إلى ساعة يده ثم أعاد النظر إلى الساعة وهو يرمي لفافة التبغ التي أشعلها للتو، في نفس اللحظة دوت طرقات الساعة البرجية فطارت مع طرقتها الأولى الطيور التي تعشش في الشجر وهي تصيح بفزع، لفت الصوت الذي يشبه صوت أجراس الكنائس انتباه العابرين وسرى مدوياً يُسمع صداه من مسافات بعيدة، هز الرجل رأسه وهو يقاوم رغبة عارمة في البكاء، ثم التفت صامتاً.. دخل إلى دكانه وخرج منه اكثر من مرة دون أن يلتفت إلى الساعة التي كان يقف أمامها مسمّراً منذ قليل. كأن طرقات الساعة كانت إذنا ببداية الحياة والعمل.. فهاهو الرجل الأشيب يفتح باب دكانه عن آخره، ويعلق إعلاناً أمام المدخل عن عرض خاص بمناسبة موسم الصيد والملاحة. في الجهة المقابلة تقف الساعة البرجية بوقار وصمت بعد أن أطلقت قرعها الوحيد. وفيما بدأت الطيور تعود إلى أوكارها، وقف أحدها على لوحة خشبية كانت تخفيها السائحتان الأوروبيتان بجسديهما، مكتوب عليها بعد آية قرآنية تبشر الذين ماتوا في سبيل الله بالجنة:

"إلى ذوي الأبطال الذين استشهدوا في الحرب وتسجى جثثهم بشرف خلف هذا السور.. عندما تقرع الساعة البرجية فتلك رسالة من أبنائكم الأبطال تقول: نحن بخير هنا.. لا تقلقوا "

وأسفل المكتوب حفرت أسماء الذين قضوا في الحرب كان من بينهم ثلاثة جنود يشتركون في اسم العائلة.. وفي اسم الأب الواقف هناك.. بباب دكان معلقة على جدرانه صور ثلاثة أطفال كان من المنتظر أن يكونوا الآن رجالا!

الرجل والنورس

حدث ذات مرة.. أن رأى أحدهم نورسًا عالقًا في حاجز شبكي مشدود على نافذة سورها خفيض لا يزيد ارتفاعه عن ثلاثين سنتيمترا بقاعة مطعم رابض بالطابق السابع عشر.. القاعة بيضاوية الشكل لها نوافذ طويلة متراصة يرى منها الزبائن وجه البحر حتى وهم في أبعد مسافة عن النافذة قُربُ المطعم من البحر يجعل الطيور الفضولية تدخل دون رهبة إلى حيث يجلس الناس - وهو مالا يحبذونه عادة - فكانت الحواجز الشبكية خير حل!

الرجل - الذي رأى النورس - كان مصابًا برهاب المرتفعات!

مجرد النظر إلى النافذة والهوة السحيقة تحتها يصيبه بتلبك عصبي ودوار.. ولولا أن المرأة البرجوازية التي تجلس معه هي من اختارت هذا المطعم الشاهق ما كان سيدخل في خياراته أبداً..

على طاولة تبتعد عن النافذة نحو سبعة أقدام همس الرجل لامرأة في عقدها الخامس جالسة قبالته:

- رأس النورس عالقة في الخيط الشبكي.. والنادل يمرُّ بجوار النافذة المرة تلو المرة.. ولا يحاول أن يبعده عن هذا الحتف.. كأنه اعتاد المشهد أو كأنه لا يحب النوارس إلى هذا الحد!

ردت المرأة ودخان سيجارتها يلفح وجهه:

- لعل النورس يحتاجك أنت يا عزيزي لتنقذه! ألا ترى أنه ينظر إليك؟ يناديك بابتهال؟ يتوسل إليك في آخر لحظاته أن تمد إليه يدك قبل أن يقطع الخيط رقبته؟! انظر إليه! لكن.. أنّى له أن يعرف أنك الآن أكثر منه خوفا؟ مسكين هذا الطائر! يثير شفقتي! لكن أتدري ما الذي يثير شفقتي أكثر؟ أنت عزيزي!

قهقهت المرأة بصوت عال ثم واصلت تلقيم فمها بالسيجارة:

- هل تخاف المرتفعات لأنك تكره المدن؟ أم تكره المدن لأنك تخاف المرتفعات؟ أنا أعلم أن القرويين لا يخافون المدن فحسب بل يكرهونها جدًّا أيضًا وهذا ما يجعلنا نصمهم بالسذاجة!

رد بصوت أضعف كثيرًا من صوت ضحكتها:

- نعم.. بالتأكيد أكره المدن! أنا قروي معجون بالطمي ورائحة الحصاد.. تحت أظفاري بقايا رماد الحطب في المواقد الطينية.. عيناي تحبان الأفق الرحب.. ليس ثمة وفاق بيني وبين المدن.. حتى وإن أثار الأمر شفقتك أو سخريتك.. هذه المدن مزيفة وأنا أكره الزيف.. والقرويون إن بدوا في عينيك سُذَّجًا غريبي الأطوار فهذا لا يمنع أنهم يرونكم مثيرين للخوف والسخرية معًا!

ردَّتْ بتحدٍّ:

- أنت تخاف المدينة أو ربما هي لا تريدك.. ربما أعمدة الفولاذ والاسمنت تشم فيك رائحة الطين والحصاد وتنفر منها!

أطرق الرجل وهو يحرك بيمناه علبة السجائر التي تتناوب المرأة على حباتها دون توقف.. ورفعها بكلتا يديه إلى مستوى عينيه واضعًا مفصلي ذراعيه على الطاولة.. ثم قال وهو يقلب العلبة بين أصابعه:

- هل تعلمين أن بينك وبين المدينة تشابه كبير؟

نظرت إليه المرأة بتركيز دون أن ترد.. كل ملامحها تتساءل بفضول: "كيف"؟ وهو ما يزل يقلب علبة السجائر أمام عينيه:

- هل تستطيعين مواجهة العالم بغير ملامحك المحسنة بمساحيق التجميل؟! هل يمكنك حقًا أن تشاركي نخبة من الأثرياء مأدبة غداء بملابس بيضاء بسيطة أو حضور حفل زفاف دون تصفيف شعرك؟!

صمت برهة ثم نظر إلى عينيها المضطربتين وهو يضع علبة السجائر على الطاولة:

- بالطبع لا.. أنت لا تجرؤين على فعل ذلك رغم أنك تملكين كل حريتك في الاختيار.. زيف وادعاء لكن بمسميات أخرى.. هكذا أنتم.. هكذا مدنكم.. تتجمل بالزيف هذه الأضواء المبهرة والنوافير المتراقصة والحدائق الملونة كلها محض ادعاء وقبح.. أرأيتِ كم أنتما متشابهتان؟!

عاد للخف مُسندًا ظهره إلى ظهر مقعده:

- أنا كذلك أشبه القرية الرحبة المطمئنة الخصبة الغنية بالخير.. لا حاجة بي إلى الزيف.. أنا أحضر الأعراس والولائم والاجتماعات العامة بلباس قروي رخيص.. هل تصدقين؟ هذا هو الفرق.. ولهذا أنا لا أصدق المدينة ولا هي تصدق أنني أنتمي إليها!

بقي لحظات يتأمل وجهها المرتبك.. ثم نهض متوجهًا نحو السياج الخفيض للنافذة.. خطا بإحدى قدميه من فوقه فيما قدمه الأخرى لم تعبر فبقي السياج بين قدميه.. صار نصف جسده في الخارج.. مجرد دفعة بسيطة ويختصر نحو خمسة وسبعين مترًا سقوطًا إلى الأرض في لحظات.. قبض بيدٍ على حافة النافذة.. ومدَّ الأخرى محاولًا تحرير الطائر.. المرأة تنظر إليه بذهول كأنما رأت تمثالًا صخرياً يتحرك من مكانه..

بعد لحظات كان الرجل يقف على عتبة النافذة مبتسمًا.. يرقب الطائر الذي لا يصدق أنه مازال حيًّا..وهو يحلق مبتعدا نحو الغيوم!

السماء تمطر جبنا..!

قالتها الجدة وهي تجلس القرفصاء.. ضامة يدها إلى حجرها.. نصف جسدها الأعلى مُنحنٍ للأمام.. على سرير حديدي عتيق أسود ذي أعمدة أربعة.. تحيط بها ستارة شبكية رقيقة بلون وردي يتهدل أحد أطرافها وصولاً إلى حافة السرير..

في الغرفة التي يستند السرير على أحد جدرانها وقف شاب يافع به بعض شبه من العجوز وهو يضحك ساخراً بعد أن سمع منها ما قالته..

- ياله من حلم! وأين أمطرت السماء جبنها يا جدتي؟

قالها بصعوبة وهو يضحك.. قالت الجدة دون أن تنظر إليه:

- على بيتنا ..

ثم رفعت رأسها وأشارت عبر النافذة المفتوحة إلى ساحة واسعة أحاطها مع البيت سياج طيني ملتوٍ ملتصق تماما ببيت حديث البناء

- هنا .. في حوش الدار!

ضرب الشاب كفيه على بعضهما وهو يضحك ويهز رأسه كمن فقد الأمل في عقل محدثه.. ثم خرج من الغرفة.. لا يكاد يسكت عن الضحك حتى يبدأه من جديد.. ومن بعيد سُمِعَ صوته يحكي لنساء الدار عن حلم الجدة الهزلي لتتكاثر من حوله ضحكاتهن.. لم يبدُ على العجوز أي اكثراث.. ولم تحد بناظريها عن النافذة التي أشارت من خلالها.. نظرت إلى بقعة السماء التي تبدو من النافذة وكأنها تصدق تمامًا ما رأت!

في تلك الأثناء كان بقال القرية مع ابنيه اللذين لا يتجاوز كبيرهما الثالثة عشرة من عمره فيما يصغره الآخر بعامين ينقلون الحاجيات إلى البيت الحديث الملتصق بالسور الطيني المُسَيِّجِ للبيت المجاور.. غرفة المنزل العلوية خصصها صاحب البيت لتخزين بضاعته.. لذلك فبابها الحديدي مصفد بأقفال سميكة..

خلف الباب الحديدي وضعت براميل الزيت وصناديق الشاي والتبغ.. بطول الجدار يتمدد صندوق معدني مستطيل مبطن بطبقات من البلاستيك الرقيق.. به سائلٌ ملحي أبيض يغمر قطع الجبن لتبقى صالحة ورطبة أطول عمر ممكن.. مفتشو التموين يحررون مخالفات سوء تخزين بشكل ثابت كلما مروا من هنا.. ليس ثمة مكان أفضل من غرفة البيت العلوية لتشوين البضائع دون خوف من المفاجآت غير السارة.. البقالة الجديدة أكثر اتساعاً وحداثة من القديمة.. هنا ثلاجة مشروبات غازية وطاولة عرض تحتاج أن تملأ بالبضائع المبهرة في أسرع وقت ممكن.. على الجدران مُدَّتْ أرفف خشبية تحمل معلبات وأكياس متراصة بدقة.. في الأركان أجولة بقوليات وصناديق سمك مملح وبراميل زيتون.. وعلى يسار المدخل وضعت طاولة خشبية عليها ميزان رقمي وأقراص جبن أصفر وأطباق بيض كرتونية.. كل شئ في مكانه الصحيح.. "يبقى فقط ملء صناديق الجبن في طاولة العرض" هكذا قال البقال لنفسه بصوت مسموع له فقط .. الوقت الذي يمر يساوي خسارة المزيد من الجنيهات لذا هو يعمل منذ الأمس دون توقف.. وما كان صعوده للغرفة العلوية عشرات المرات إلا لهذا السبب.. نادى البقال وحوله زبائن متطلبون ظهروا فجأة بإلحاح عصبي على زوجته.. خرجت إليه من باب جانبي وهي تتثاقل برحم منتفخ قد يَنْسَلُّ الطفل الذي بداخله بعد أيام.. قال لها بلهجة آمرة عجولة وهو يقذف اليها بحلقة مكدسة بمفاتيح غير متشابهة:

- أخبري الولدين ان ينزلا لي الجبن بالسلة..

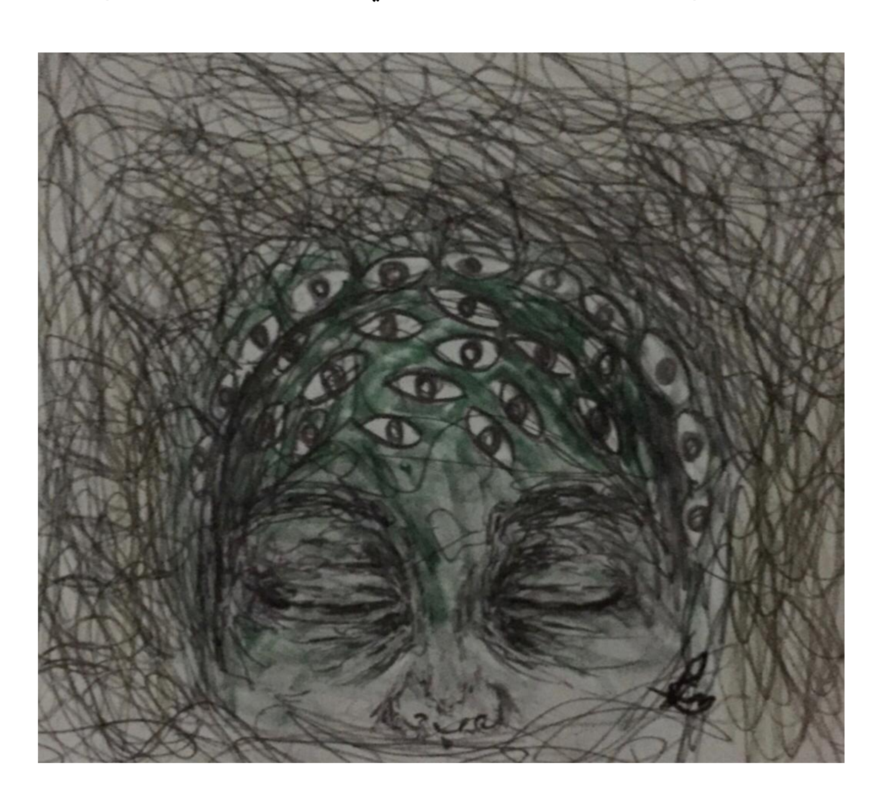
ثم استطرد بصوت مزدجر:

- حذار من الثقل! يُنزلان الجبن على دفعات.. ولا يزيدان عن ربع السلة في كل مرة!

بصوت منهك.. نادت الأم ابنيها اللذين يلعبان الكرة في شارع جانبي.. وأعطتهما الأمر الذي تلقته منذ قليل لكن دون ذكر لمسألة الثقل! هُرع الطفلان إلى الأعلى وقد بدأ كبيرهما في فتح الباب الحديدي فيما سحب الآخر سلة بلاستيكية كبيرة تتسع قاعدتها لجلوس رجل بالغ.. مربوطة بحبل متدلٍ من عجلة حديدية مثبتة بذراع خشبي.. تلك السلة هي الحل الامثل لإنزال البضائع الثقيلة بسرعة وبأقل جهد..

ليس على الطفلين سوى وضع الجبن ومن ثم يكون تحريك ذراع الرافعة وإنزال الحمولة بشكل ميكانيكي.. وضع الطفلان بطانة بلاستيكية في السلة ثم تناوبا على وضع الجبن بها ثم صبا عليه قليلا من السائل الملحي.. هما يعرفان ماذا يفعلان.. مُلِأت السلة إلى آخرها.. كان واضحًا جدا أن الحبل المشدود لن يتحمل الثقل.. لكن أنّى لطفلين أن يدركا هذا؟

في اللحظة التي انقطع فيها الحبل.. ارتطمت السلة بنتوء خرساني شجها ونثر محتوياتها في فناء البيت المجاور.. بينما كانت الجدة تنظر من النافذة على الجبن النازل من السماء وهي تصفق كطفلة وتضحك بنبرة أعلى من ضحكات حفيدها الذي كان الجبن يتهاوى على رأسه الآن!



راقص التنورة

ذلك الفَتِيُّ اليانع.. الذي وطأت قدماه الآن أرض محطة مصر.. وقف مذهولاً.. خائفاً.. فرحاً.. أهذه "أم الدنيا"؟ وقف الفتى يحملق في المكان وكأنه قد قام من نومه ليجد نفسه في قصر مسحور! ملامح الفتى وملابسه تشي بريفيته البسيطة.. لم يكن يحمل سوى حقيبة كبيرة قديمة عليها نقوش مطرزة.. كان يمسك بها بحرص شديد.. بعد أن استفاق قليلاً من دهشته احتضن حقيبته وقد امتلأ حماسة وفرحاً ثم انطلق ليلحق بالجحافل الخارجة .

زادت دهشته وهو يرى هذا الجمع من الناس السائرين وكأن أحدهم لا يرى الآخر.. في منتصف الميدان الواسع يقف هذا التمثال الكبير الضخم الذي سبق وشاهده في التلفاز.. وكمّ سيارات لم يرَ مثيلاً لها في حياته.. هي "أم الدنيا" التي جاءها ليواعد حلمه وحلم أبيه..

"رشيد" راقص التنورة الصغير! جاء بتنورته إلى قاهرة المعز ليرقص في مولد الحسين.. هكذا كان حلمه وحلم أبيه.. أن يسافر إلى مصر ليرقص هناك ويذيع صيته وتنتشر صورته ويطلبه الجميع ليرقص لهم بتنورته.. هذه الصور لم تكن تبارح ذهن الفتى أبداً لطول ما رددها والده أمامه. وقف "رشيد" أمام تمثال رمسيس وهو موقن بأنه قد قطع نصف الطريق نحو حلمه.. بقي فقط أن يسأل عن الطريق إلى الحسين!

أخذ الفتى يدور في الميدان جيئة وذهابا.. ملامح الدهشة لا تفارق وجهه.. مأخوذا بما حوله.. يُربك السيارات.. ويصطدم بالمارة.. ويتعثر في حقائب المسافرين..

بدأت العيون تلحظ الفتى التائه وسط الزحام.. بدا عليه أنه لا يعرف إلى أين يذهب؟ ملابسه وخطواته الشاردة وتلك الابتسامة على وجهه ولَّدَت الريبة تجاهه! غادرت سيدة عجوز مقعدها خوفًا منه.. بائع الأحزمة وقف ينظر إليه ويضحك.. بعض المارة أخذوا يتمتمون بكلمات ويشيرون إلى رؤوسهم بما يعني أنه مجنون بعد أن مر من بينهم وهو شارد!

مال بائع الفول على سيارة الشرطة المتوقفة أسفل الكوبري وحدث راكبيها بكلمات وهو يشير بإصبعه نحو الفتى .

أراد الفتى أن يذهب إلى الحسين قبل أن ينتهي النهار.. اقترب من إحدى السيدات لتدله على الطريق.. أفزعها ظهوره المفاجئ واقترابه المفرط.. صرخت وقبل أن يفعل شيئا تلقفته يدٌ من قفاه.. قبل أن يفيق من صدمته كانت يد أخرى تضربه على وجهه ورجل تركله في بطنه فسقط على الأرض من الألم ناظرا في ذهول إلى ضاربه.. رجل الشرطة الذي يتحدث مع السيدة برقة وبلغة أجنبية.. استبد الذعر بالفتى الذي كان يحاول الوقوف فتلقفته يد الشرطي مرة أخرى وأخذ يجره على الأرض كحيوان ميت أثارت رائحته الناس.. لم يتوقف فم الشرطي عن السب والشتم للفتى المسكين المتشبث بحقيبته!

كقطٍ صغير بين مخالب مفترسٍ كان رشيد!

بطاقتك!

أخرجها وهو يرتجف.. نزعها الضابط من يده ونظر إليها نظرة سريعة ثم قال كلمات في جهاز اللاسلكي! ثوانٍ.. ووقف أمامه شرطيٌّ آخر أدى له التحية بنشاط.. فناوله الفتى

أعده من حيث أتي

داخل المحطة التي أعيد إليها.. وحتى اللحظة.. رشيد لا يعي شيئا.. لا يفهم إلى أين تذهب به هذه الأيادي التي تناوله لبعضها البعض.. جموع الناس تنظر بأسى إلى الفتى المصبوغ وجهه بالدم السائر بينهم ذليلا مكسورا.. بضع كلمات نفذت إلى وعيه ففهم إلى أين يُساق! توقف فجأة! لم يستطع العسكري أن يزحزحه من مكانه فأخذ يصرخ فيه ويجذبه دون أن يهتز! فتح الفتى حقيبته فذُعِر الناس وتراجعوا.. حتى العسكري ابتعد عنه قليلا..

بهدوء.. التقط رشيد ما في الحقيبة.. ارتدى تنورته الزاهية المذهبة المطرزة بعناية.. بدأ يدور على نغمات لحن لأبيه يتردد في ذاكرته.. اقترب الناس.. رقص الفتى كأبدع ما يكون الرقص.. جسده كله صار حاسة واحدة.. اقترب الناس أكثر.. والعابرون توقفوا.. ورجال الشرطة بُهِتوا.. وكبيرهم علت وجهه ابتسامة ما كان يُظَّنُّ أنه يمتلك مثلها.. والفتى رشيد مستمر في الرقص.. يدور بتنورته ومن عينيه تتساقط الدموع!

صاحب الحذاء الأخضر

وقف أمام زجاج نافذة العرض في متجر الأحذية المطل على الشارع الكبير.. بابتسامة على وجهه ثبت عينيه على زوجٍ من الأحذية الجلدية موضوع على طاولة بيضاء.. وأمامه لوحة صغيرة مكتوب عليها الثمن.. صاحب المتجر أفرد للحذاء نصف نافذة العرض.. كأنه درة وضعها تاجر ذهب ليسحر بها الألباب والأبصار.. لكن شيئاً ما في هذا الحذاء كان مختلفاً عن سائر الأحذية.. فرغم جودة خامته وصناعته ورخص ثمنه إلا أن لونه الأخضر جعل منه شيئاً أقرب إلى السخافة.. فلم يكن أحد ليرتدي حذاءً أخضر قط!

كان أشبه بحذاء مهرج.. لونه فاقع جداً ولا يستحق أن يؤخذ ولو كان بدون مقابل! هكذا كان رأي الواقفين على رصيف الشارع يشاهدون هذا الحذاء الغريب.. عبارات السخرية تصل إلى أذني صاحب المتجر في الداخل وهو ينظر للحذاء الأخضر بأسى.

لحسن حظ صاحب المتجر لم يكن كل الوقوف لديهم نفس الرأي.. فصاحبنا.. المرسومة عليه علامات الفقر والتشرد بخطوط عريضة.. كان يأتي في نفس الموعد ليقف أمام نافذة العرض متأملا الحذاء.. لكن برؤية مختلفة وبطابع خاص كان مطبوعا بداخله إعجابا وحبا يزدادان يوما بعد يوم!

تتغير النافذة.. توضع بها أحذية أكثر جمالاً وأناقة.. لكن صاحبنا لم يكن يعير أي انتباه سوى لهذا الحذاء.. انتبه العاملون في المتجر لهذا الرجل الذي يخرج كل يوم من زحام الشارع الكبير ليقف أمام النافذة متأملا الحذاء بنظرات لامعة وابتسامة عجيبة ثم ينصرف!

في ساعة متأخرة من مساء شتوي ممطر.. كان الشارع الكبير هادئاً خالياً أو يكاد.. جميع المتاجر مغلَقةٌ أبوابها.. قطع هذا السكون صوت أقدام حافية تسير على الرصيف متجهة نحو متجر الأحذية.. متجاوزة عددا من البرك الصغيرة التي خلفتها مياه الأمطار.. وقف صاحب القدمين الحافيتين - الذي لم يكن سوى ذلك الرجل المعجب بالحذاء - أمام متجر الأحذية وأرسل ناظريه نحو الحذاء الأخضر وارتسمت على وجهه نفس الابتسامة.. لكنه لم ينصرف بل ظل واقفا أمام نافذة العرض مدة طويلة.. ظل واقفا حتى أدرك التعب قدميه اللتين تجمدتا من شدة البرد فاتخذ لنفسه رقعة جافة بجوار نافذة العرض.. وجلس متكئاً إلى حائط المتجر وهو يرسل نظرات بين الحين والآخر إلى حذائه المحبوب.. ملابسه رثة جدًا.. يبدو عليه الجوع والضنك.. لكن عيناه فيهما لمعة غريبة.. لمعة سعادة وفرح تتضح جدا عندما يرمق الحذاء الأخضر!

نام الرجل في مكانه وهو متكئ على الحائط حتى أيقظته أصوات الحياة التي بدأت تدب في الشارع الكبير مع بزوغ نور الصباح .

كان صاحب المتجر ظهر لتوه ممسكا بالمفتاح يهم بالدخول إلى متجره.. نهض صاحبنا سريعا واقترب منه فرمقه بنظرة اشمئزاز ولم يعره انتباها.. لكن صاحبنا وقف أمامه وأخرج من صرة كان يربطها حول رقبته جنيهات عدة ثم قال له بضع كلمات وهو يشير إلى الحذاء الأخضر! سرعان ما تغيرت نظرة الاشمئزاز التي كانت مرسومة على وجه التاجر.. فابتسم.. ووضع يده على كتف الرجل واصطحبه مُرحباً إلى داخل المتجر وبعد برهة خرج الرجل وقدماه لأول مرة داخل حذاء! يصاحبه هذا الشعور الرائع بالدفء والحماية! الرجل يكاد يطير فرحًا.. يخطو ويتراقص فوق بركة المياه على الرصيف دون أن يشعر بالبرد! ابتسامته تحولت إلى ضحكات عالية.. ابتعد وهو يقهقه تاه وسط الزحام ولم يره أحد بعدها أبدا!

أما صاحب المتجر فقد راقب الرجل وهو يبتعد فرحا بحذائه ثم دخل فأخرج حذاء باللون الأزرق ووضعه مكان سابقه!

عم محمود

جاوز عم محمود جار الحقل السبعين من عمره.. لكنه مازال يمارس الفلاحة بهمة شاب دؤوب.. علامات الزمن المنحوتة على وجهه المصبوغ بحرارة الشمس لم تعكر زرقة عينيه الصافيه كصفحة بحر هادئ.. يميزه صوته الغليظ ولحيته البيضاء الخشنة التي لا تطول أبداً.. ولفائف التبغ التي يصنعها يدوياً ليدخن منها عدداً معلوماً في مواعيد ثابتة كثبات مواقيت كل شئ يفعله يومياً.. لا يتحدث كثيراً.. فهو ليس كالشيوخ الذين يملؤون بالثرثرة فراغات الحياة التي ظهرت إجبارياً بحكم تقدم العمر وتقهقر الصحة.. منهمكٌ طيلة الوقت في فعل شئ ما.. لا يطلب الراحة ولا يغيب عن عالمه تحت أي ظرف.. يعاند الزمن بإصرار عجيب..

علاقتنا غريبة نوعاً ما .. نقيم النهار كله في فضاء أخضر لا نهائي.. يربطه بالقرية طريق ترابي أفعواني يفصل بين الحقول والترعة.. على جانبيه نمت أدغال من البردي والبوص واللبلاب.. نستزرع حقلين متجاورين تتربى على بعض نبتهما بضع غنمات له وبقرتان لي.. خبيرٌ هو بشؤون الفلاحة وأنا لا خبرة لي! أمارسها حديثاً كتحدٍّ ذاتيٍّ بغية التوغل في بحرها إلى أبعد مسافة ممكنة عن شاطئ الجهل.. ولممارسة شئ ما في فراغ ما بعد الدراسة الجامعية.. اثنتا عشرة ساعة تمر يومياً وليس في فضائنا الأخضر سوانا! اثنتا عشرة ساعة كافية جداً لأتعلم من الجار العجوز فنون وأسرار الزراعة التي يجهلها المخضرمون.. تعلمت منه نشاط البكور.. آمنت مثله بقداسة الأرض في قلب زارعها.. صدقت محبة النبات لراعيه وتعلمت مجابهة المفاجآت غير السارة بحلول بسيطة غير متوقعة.. في الحقيقة طريقته مختلفة وجيدة جدًا في التوجيه.. فتارة يوجه بالانفعال كما حدث حين وطأت بقدمي على البرسيم خاصتي وهو في مرحلة الإنبات.. صرخ وغضب ثم جلس القرفصاء على حافة الحقل يقيم الأعواد الغضة التي تكسرت تحت قدمي برفق بالغ.. كأنه يواسي قطته التي داس على ذيلها زائر غريب! وتارة أخرى بالسخرية والتهكم كما فعل حين انهارت سدودي الطينية الضعيفة التي بنيتها بمشقة أمام أولى دفقات المياه في قناة الري.. فنزل إلى الماء بقدميه النحيفتين ليصنع سدوداً مثالية بمنتهى البساطة وفي وقت قياسي..

عم محمود ليس له أصدقاء.. لا يربطه ودٌّ واضح بأحد! أذناه تلتقطان الأصوات بصعوبة بالغة تجعل من محادثاتنا أمراً مرهقاً جداً.. مفهوم " السرية " محذوف تماماً من قاموس علاقتنا.. ربما في فضائنا الأخضر الفسيح ليس لهذا الأمر أهمية لكن في أماكن أخرى الأمر مختلف.. فهو قد يشكو لي وسط زحام الخروج من صلاة الجمعة بصوت يسمعه الذين في بيوتهم عن ألم مجهول في خصيتيه.. أو يسألني ساخراً عن فلان الفلاني الذي خانته زوجته لحظة مرورنا بالصدفة من أمام بيت فلان الفلاني نفسه وهو يشرب شاي المساء في الشرفة.. أو يسب ويلعن مدرس الألعاب الذي أشرك حفيده في فريق كرة القدم.. فانكسرت ساقه والْتَفَّتْ لثلاثة أشهر بلباس جصي!

عم محمود يتعهدني بالوصايا دائمًا.. ليس عن الزراعة والفلاحة فقط بل عن كل شئ.. التعلم.. المعاملات.. الصحة.. النوم.. الطعام.. وحتى عن علاقات الحب كانت له نصائح رائعة! مشاعر عم محمود تظهر بشكل غريب ومختلف.. يحبني جداً لكن لم يقل لي ذلك يوماً.. لا يقول هكذا صراحة " أنا أحبك "! لم أسمع منه إطراءً قط على أي شئ جيد فعلته.. هو يراقب ما أصنع ثم يعقد يديه خلف ظهره ويمشي مطأطئًا .. كانت تلك علامة الاستحسان والرضا!

وبالرغم من أنه يساعدني في كل شئ تقريباً إلا أنه لا يقبل مساعدة مني أبداً.. بنفسه يحمل الجذوع اليابسة وأحمال البرسيم وأجولة الأرز.. يغوص في بئر ماكينة الري لتنظيفه.. لا يقبل أي دور لي معه.. فرضاه عما يفعله لا يكون إلا لأنه هو من يفعله !

لم يكن عم محمود يغيب عن عالمه الأخضر أبدًا.. أحياناً كنت أتكاسل أو أنشغل فلا التقيه أياماً عدة.. وتبقى بقراتي في المنزل تأكل أعلافا يابسة.. لكن عم محمود أبدا لم يتكاسل ولم ينشغل ولم يصرفه شيء عن رعاية حقله وغنماته!

ذات يوم وصلت الحقل في السابعة صباحًا.. عادة ما أجد عم محمود قد سبقني بساعة أو أكثر.. لكنه لم يكن هنا.. مرت ساعة.. ساعتان ولم يظهر الرجل العجوز.. تأكدت أن شيئاً عظيماً وراء تأخيره.. أدركت للمرة الأولى كيف أن المكان كئيب موحش بدونه.. مرابط غنماته ومجلسه بالقرب منها وإبريقه الأزرق الذي يصنع فيه الشاي.. كل شيء بارد كجثة فارقتها كل معالم الحياة!

عيناي ترميان نظرات كل برهة على الطريق الترابي الممتد.. ربما تظهر غنماته التي اعتادت أن تسبقه وهو في طريقه إلى الحقل..

انتصف النهار فلم استطع صبرًا!

اتخذت طريقي للقرية.. وأنا أهرول على الطريق الترابي قابلني أحد جيرانه.. قبل أن أساله سألني:

- أين عم محمود؟!"

أجبته بدهشة تحمل أسئلة أكثر مما ترُدُّ بإجابة:

- لا أعرف.. ما الذي جرى؟ "

أخبرني أن عم محمود خرج لصلاة الفجر ولم يعد لبيته.. لم يره أحد.. حتى الذين كانوا معه في المسجد لم ينتبهوا إلى أين ذهب!

عدنا معًا إلى القرية التي كان كل أهلها في حالة بحث وطرح متواصل للأسئلة.. لم يستسغ عقلي ما يحدث.. عم محمود ضائع؟! ياللسخافة! هذا الرجل لا يمكن أن يضيع أبداً.. وهؤلاء الذين يروحون ويجيئون بحثاً عنه لا يعرفونه كما أعرفه أنا.. زوجته وأبناءه يبكون جزعا والناس يواسونهم.. يبكونه وكأنه مات!

صامتاً أمشي! تنهمر عليّ عشرات الأسئلة.. هل رأيته؟ هل كان بخير؟ أين يمكن أن يذهب؟ أسمعها ولا أجيب.. مازلت لا أقبل ما يجري.. ذهبت إلى بيته.. إلى المسجد.. المقابر.. مرة أخرى إلى الحقل! فتشت في كل مكان كما يفتش ذوو طفل صغير اختفى من أمامهم فجأة! حل المساء ولم يظهر عم محمود.. مكبرات الصوت في المساجد وعلى عربات جوالة تنادي من بعيد عن عجوز غائب.. لم يأت الصباح بأي جديد.. المستشفيات ومراكز الشرطة أكدت سجلاتها أنه لم يظهر هناك.. يوم آخر ثقيل يمر!

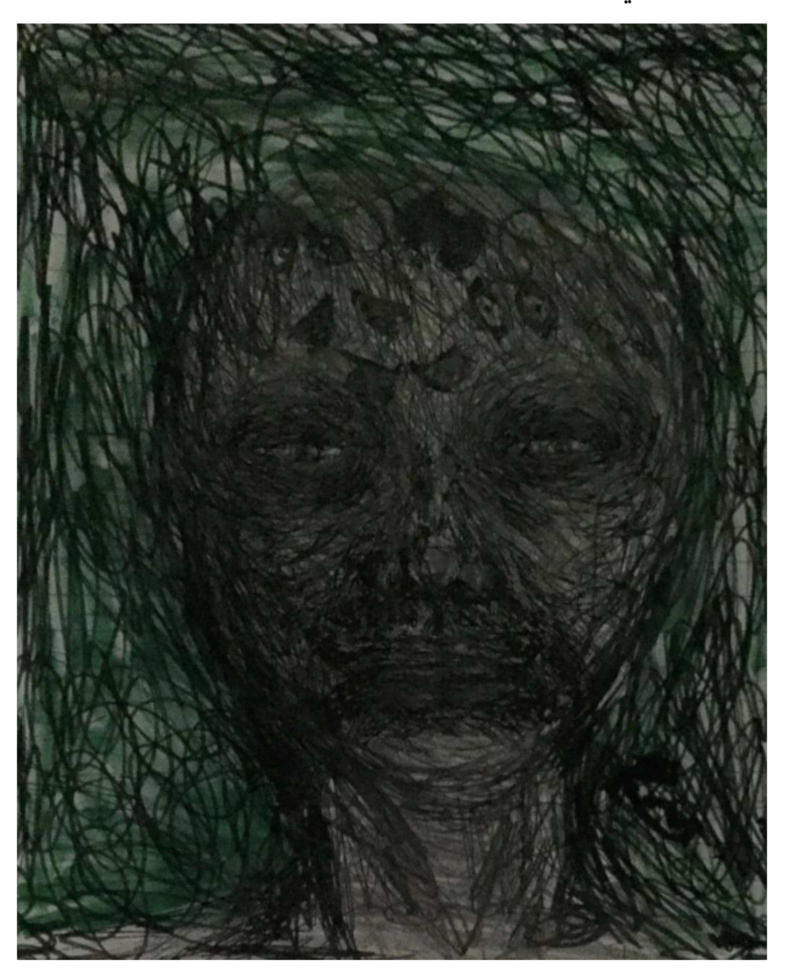
بحق الله أين ذهب؟!

ثلاث سنوات مرت ولم يعرف أحد الإجابة! لم يظهر عم محمود مرة أخرى.. لم تنجح كل محاولات العثور عليه .. وخفتت حماسة البحث عنه.. حتى أبناؤه يمارسون الآن حياتهم بشكل طبيعي.. هذا الخطب الجلل ما عاد أهل القرية يذكرونه كثيرًا.. الرجل المفقود سقط من ذاكرة الناس.. تبدد من تاريخ حزنهم لتحل محله أحزان أخرى أكثر حداثة!

أما أنا.. فمازلت على حالة انتظار الرجل الغائب!

مارست عنه أعمال الفلاحة في حقله.. وكل حين أرمي نظرات على الطريق الترابي لعلها تلتقط اول ظهورٍ له! أود أن أخبره أن غنماته التي أرعاها الآن تكاثرت.. أن محصول القمح في حقلينا كان جيداً جداً وأنني أغوص بسلاسة لأنظف بئر ماكينة الري.. وأصنع السدود الطينية بشكل جيد! لكنه لا يظهر!

أحياناً كنت أراه معي للحظات دون أن يتحدث ثم يختفي.. مرة كان يسير على الطريق الترابي.. مرة كان يتمدد في مجلسه القريب من مرابط الغنم.. مرة على حوض ماكينة الري.. ومرة كان إلى جواري مباشرة يشاهدني وأنا أقيم أعواد البرسيم الطرية التي داست عليها قدمي بالخطأ.. قبل أن يعقد يديه خلف ظهره ويمضي بعيداً مطأطئًا رأسه حتى تلاشى تمامًا!



قاتل

لم تنجح كل محاولات الحرس لإغلاق باب قاعة المحكمة المكتظة.. حتى تلك المرة التي لوحوا فيها بالأسلحة فوق رؤوس المتزاحمين لإبعادهم فقط عن مجرى ضفتي الباب .. ليس ثمة موطئ قدم ومع هذا يبتلع الزحام كل الذين يلجون إليه ويذيبهم.. ضجيج وصخب لا يهدآن.. تتعالى الأصوات وتختلط اختلاط الجمع المائج نفسه.. الشرفات الطويلة التي تحف القاعة تكدست بالناس .. ولولا القضبان الفولاذية لانسكبت سيول الغوغاء داخل القاعة.. عشرة حراس يدفعون الناس دفعا عن حرم منصة القضاء وزاوية حبس المتهمين المسيجة بقضبان وشباك حديدية..

أسراب من الحشد تسلقت كل مكان يمكن أن يحمل أحداً جلوساً أو وقوفاً.. ومضات التقاط الصور من عدسات وهواتف محمولة لا تتوقف لحظة واحدة.. كاميرات التلفزة لم تتمكن من الدخول.. تحاول الآن أن تختار أفضل زاوية مجمعة لتصوير الحدث.. صرخة حاجب المحكمة حولت الصخب العارم إلى وجوم هامس .. شخصت الابصار جميعها إلى بابٍ يفتح خلف منصة.. خرج منه ثلاثة قضاة الآن وجلسوا في صمت مهيب .. تعالت الأصوات مجددا مع دخول متهم مقيد بسلاسل قاسية في اليدين والقدمين أرهقته وأثقلت حركته فيما يحثه على الحركة شرطيان غليظان عن يمينه وشماله!

تتعالى اللعنات على المتهم الملقى بلا حراك ينتظر حكما نهائيًا سيكون الإعدام لا ريب!

"الجريمة الصدمة" كما اسمتها الصحف لن تسقط من ذاكرة الناس بسهولة.. خطف رجل وتعذيبه وتقطيع أوصاله أمرٌ أبشع من أن يُنسى!

لف الغموض تلك الجريمة وقتاً طويلاً.. لا أدلة.. لا أسباب منطقية!

بعد عام ونصف خلصت التحقيقات إلى مواصفات المتهم الحقيقي.. الذي اكتظت ضده قلوب الناس كراهية وبغضاً.. بينما أورقت نفس القلوب تعاطفاً مع ابنة القتيل الوحيدة التي تصدرت مشاهد الحديث عن والدها! أعلنت الشرطة القبض على القاتل بعد أن أثار شكوك تاجر تحف كان يبيعه خاتماً خاصاً بالرجل المفقود.. شك المحققون كثيراً في قوى المتهم العقلية وهو مستمسك ببراءته مستدلاً بأن الخاتم الذي كان بحوزته منحه إياه رجل لا يعرفه!

طرق القاضي الأوسط بمطرقته لتهدئة الصخب العارم.. ثم تلا حكما على المتهم بالإعدام شنقاً مؤكداً أن اليقين استقر في ضمير المحكمة بارتكاب المتهم هذا الجرم الفظيع.. تجدد الصخب سعيداً متشفياً هذه المرة .. انخرطت ابنة القتيل في بكاء شديد ثم سارت مع جحافل المنسحبين من القاعة إلى الخارج.. التقطتها عدسة تصوير تليفزيوني وانقض عليها مراسل وضع أمام فمها لاقط صوت:

كيف تشعرين الآن؟!

حولها تجمع العشرات يشدون أزرها وهي تحكي عن مشاعر الراحة بعد أن حانت اللحظة التي انتظرتها.. الكل يشيد بنزاهة الحكم وعدالة القصاص واستحقاق العقوبة.. من بين الجموع برز وجهٌ! وجهُ رجلٍ يشبه المتهم إلى حد كبير.. كان أكثر المحتشدين ارتياحًا.. وكانت ذاكرته محتشدة بصور أيام مضت منذ شهور طوال.. وصرخات ألمٍ.. وبريق سكين عريض لامع.. وحاد جدا!

قبعات

على ناصية شارع مطمئن.. تتراص على جانبيه بيوت متشابهة وشجرات عتيقة ضخمة.. وفي وقت ينقطع فيه مرور العابرين.. ظهر رجل نحيف بملامح غير مريحة يحمل سلة خيزرانية مثبتة على ظهره.. بها قبعات سعف رخيصة يضع هو إحداها على رأسه..

بائع القبعات يمشي بحرص.. كجرذ حذر يخشى أن يوقظ صاحب البيت.. يخطو بهدوء بارد لا يخدشه شيء.. حتى نداءات الباعة على بضاعتهم تحاشاها.. وزحف صامتا! أمام بيت يتطاير منه صوت طفلة تنادي قطتها وقف برهة.. عيناه مثبتتان على نافذة تنطلق عبرها نداءات الصغيرة.. يبتسم.. يمد يده.. يخرج من سلته قبعة.. يمسكها من حافتها.. يقذفها لأعلى كطبق بلاستيكي دوار.. تدور وتدور.. تعلو وتعلو.. ثم تهوي مستقرة على فرع شجرة هو الأقرب من النافذة.. في نفس اللحظة تقفز قطة بيضاء وثيرة الفراء من النافذة وتتشبث بذات الفرع.. عاد صوت خطوات البائع غريب الأطوار يناوش صمت الشارع وهو يكمل طريقه.. يبتعد ويبتعد حتى يصبح ظلا.. ثم - وكما ظهر فجأة - يختفي فجأة!

دَوَّى صراخ الطفلة وهي تمد رأسها من النافذة العلوية لمنزلها ذي الطابقين.. عيناها الملتاعتان متعلقتان بقطتها البيضاء المتعلقة بفرع شجرة واهن.. المذعورة من وهن الفرع وارتفاعه.. تشبثت القطة بالغصن بكل قوتها.. لاح لها أن القبعة المستقرة على الفرع الواهن تصلح متكأً.. ما إن مسَّت القبعة حتى هوت وارتطمت بالأرض.. فراؤها الأبيض تشبع باللون الأحمر.. ثم هبت لفحة هواء حملت القبعة وطارت بها بعيدًا!!

بالقرب من ميناء بحري.. وقف صياد عجوز بجوار سمكة ضخمة مربوط ذيلها بإحكام في وتدٍ حديدي.. المتجمعون حوله يلتقطون الصور بهواتفهم النقالة.. وهو يحكي بفخر كيف أمسك بالسمكة من بقعة نائية خطرة ترعاها القروش.. كيف روض شراستها.. كيف سحبها حية إلى الميناء! يشير إلى خيشومها الذي يتحرك ببطء:

هل ترون.. ما زال قلب تلك الشيطانة نابضاً يتنفس!

من بعيد كانت القبعة التي حملها الهواء تتهادى في الأعلى دون أن ينتبه إليها أحد.. السمكة التي تزن أكثر من خمسمائة وسبعين كيلو جرام كانت الحدث الأبرز في ذلك اليوم.. ليس لحجمها فحسب.. بل للثروة التي سيجنيها الصياد العجوز من ورائها.. سقطت القبعة على ذيل السمكة تمامًا فقال الصياد ضاحكًا:

هذا فأل حسن!

وكانت هذه الجملة هي آخر ما قاله العجوز في حياته!

انتفضت السمكة الضخمة.. فتحت ودجات خيشومها.. تسارعت قبضاتها.. بسطت زعانفها واندفعت بكل قوتها للجهة التي يقف فيها العجوز.. طعنته بزعنفتها الجانبية طعنة قاتلة!

وبينما المتواجدون لا يستوعبون ما يحدث فكت السمكة القوية الوثاق عن ذيلها.. وقفزت إلى الماء في نفس اللحظة التي علت فيها القبعة من بين أقدام الجمع وحلقت نحو السماء ثم اختفت!

على جدار مقهى وسط المدينة اسند شحاذ رث جسده مطرقاً.. إحدى يديه ممدودة لتلتقط بين فينة وأخرى قطعا معدنية يضعها العابرون فيها.. في تلك الأثناء تلقت سيدةٌ - عبر هاتفها - نبأً ساراً.. صرخت في سائق سيارتها فتوقف على الفور.. نزلت إلى الشارع تقهقه.. أخرجت من حقيبة يدها لفافة مال.. ألقتها في وجه الشحاذ الجالس في مواجهتها.. فالتقطها وهو لا يصدق! سيارة السيدة مثالية جداً.. سوداء لامعة وأنيقة.. غير أن مصباح إضاءتها الخلفي كان متوارياً خلف قبعة سعف التصقت به بشكل غريب! وتيرة ابتهاج السيدة تتصاعد.. تلف.. ترقص.. تغني.. تطوح ذراعيها.. في غمرة نشوتها انقطع صوتها فجأة.. تحسست عنقها ولسانها وهي ترجف من الخوف.. طلبت من المارة المساعدة.. لم يفهم أحد.. البعض ظنها مجنونة أو ربما ممثلة شوارع.. أحدٌ لم يصدقها.. أحدٌ لم يستوعب ما جرى.. سقطت تبكي من غير صوت!

وحين بدأ الناس يتجمعون حولها.. مدَّ رجلٌ - يحمل على ظهره سلة خيزرانية - يده.. وأخذ القبعة الملتصقة على السيارة ثم وضعها في السلة ومضى دون أن ينتبه إليه أحد!



موت صحفي

صوت الخطوات المهرولة في ردهات المستشفى يتردد.. فيزيده توترا!

أصوات تنادي بتجهيز غرفة العمليات.. تتحدث عن الحالة مصابيح الإضاءة المعلقة في السقف.. تتسارع.. تصمت.. ثم تنطلق متسارعة من جديد.. بين ظهورها واختفائها يطل وجه ما من الأعلى ينظر في وجهي! يفتح فمي وعينيّ ثم يختفي.. ممرات منثنية يتجاوزها سرير المرضى ذي العجلات.. أصوات الأقدام وصرير العجلات.. إضاءات السقف المتسارعة ثم.. غرفة العمليات!

كان هذا آخر ما رأته عيناي قبل أن يغطيهما ظلام مستمر.. لم أعد أرى شيئاً.. أشعر فقط بوخزات خفيفة بعيدة جدا في جسدي لا تكاد تثير الألم.. لا أسمع شيئاً سوى صوتي يتردد بداخلي: " لماذا أنا تحديداً؟ لماذا أنا؟!"

"في الظلام الدامس بداخل عقل المتحدث ينبعث نور من ثغرة ضيقة جدا.. تتسع شيئا فشئيا ومنها يبدو ما حدث معه منذ ساعة تقريباً.."

شارعٌ عامٌّ يقسم المدينة إلى نصفين.. عند تقاطعات أربعة وقف شاب ثلاثيني تلقى للتو خبرا سعيداً.. يطالب محدثه عبر الهاتف أن يقسم على صدق كلامه.. يقطع الحديث بأسئلة متلاحقة وضحكات هيسترية عالية.. يمسك الهاتف بإحدى يديه ويضع الأخرى على رأسه: "من؟ أنا؟! يا إلهي! كيف؟!"

صحفي ثلاثيني مجتهد.. طُرِدَ رئيسُه المتهم بممارسات لا أخلاقية وذهب غير مأسوف عليه.. لم يكن يحلم أو يتصور أن يكون هو البديل.. الآن يتلقى الخبر بفرح غامر ومفاجأة حادة مربكة.. لم ينتبه أن إشارة الطريق المقابل لم تكن حمراء.. للتو أدرك ذلك بعد أن صدمته سيارة مصنع مندفعة.. قذفته مرتطماً بالإسفلت على بعد ثلاثين متراً ثم أكملت طريقها دون توقف.. كان صوت الارتطام آخر ما سمعه الصحفي الشاب.. قبل أن تلتقط أذنه أصوات المسعفين المتراكضين في المستشفى من حوله وهم يدفعون سريرا ذا عجلات يحمله باتجاه غرفة العمليات في محاولة محدودة الفرص لإنقاذ حياته..

قال قائد سيارة أجرة كان الأقرب للصحفي الشاب بعد سقوطه: "إن الحادث يشبه حادثا وقع قبل ثمانية عشر شهراً في نفس المكان.. أذكر الحادث جيداً.. كنت أعبر التقاطع.. وفي أقل من غمضة عين كان رجلٌ مسنٌّ ممددًا في بركة من الدم"! توقف السائق عن الحديث فجأة وكأنه تذكر تفاصيل مهمة لم تطرأ في باله من قبل: "ربما لم يكن حادثاً.. لعله كان متعمداً.. نعم.. متعمد.. أذكر أن الرجل كان يقول.. لماذا أنا؟ لماذا هذا المكان تحديداً؟ حتى إن السيارة التي قتلته لم تتوقف لثانية واحدة.. يا إلهي! إنه أمر مريع.. حتماً سأخبر المحققين بذلك.. من يدري"!

لم يكن الوصول إلى قائد سيارة المصنع التي حطمت عظام الصحفي الشاب صعباً.. عامل أربعيني ينقل الزجاج إلى أطراف المدينة بضع مراتٍ يوميا.. قبل قليل جمعت كل بياناته وخضع لاستجواب لم ينكر فيه أي شئ.. بدا مهزوزاً مرتبكاً خائفا.. وفيما يجلس قائد سيارة الأجرة يحكي الآن للمحقق ما تلاه قبل قليل عن حادث السير القديم كان الصحفي الشاب وهو يشعر بوخزات في رأسه وجسده ينادي في داخله بصوت لا يُسمع من خارجه: "لماذا أنا؟ لماذا هذا المكان؟"

في المساء كانت جثة الصحفي تخرج من المشفى.. يحيطها حشد مصدوم واجم لا يصدق ما حدث.. دُسَّ النعش في سيارة الموتى.. وانطلق الموكب الحزين نحو طرف من أطراف المدينة حيث المثوى الأخير للصحفي الشاب..

بعد انتهاء كل شئ وبعيداً عن المقبرة وضجيج المشيعين ونواحهم.. هناك في غرفة التحقيقات ذات الإضاءة الشحيحة.. وبين أوراق غير مرتبة على طاولة في الزاوية.. يبدو مغلف مفتوح يبرز منه مستند يحمل اسم سائق المصنع.. لم يلفت اسمه الانتباه.. بدا وكأنه اسم عاديٌّ.. وأحدٌ لم ينتبه لتطابق اسم أبيه المكتوب في بطاقة هويته مع اسم رجلٍ قُتل منذ عام ونصف.. حين دهسته سيارة صحفي يوارى جثمانه الآن في قبر بأطراف المدينة!



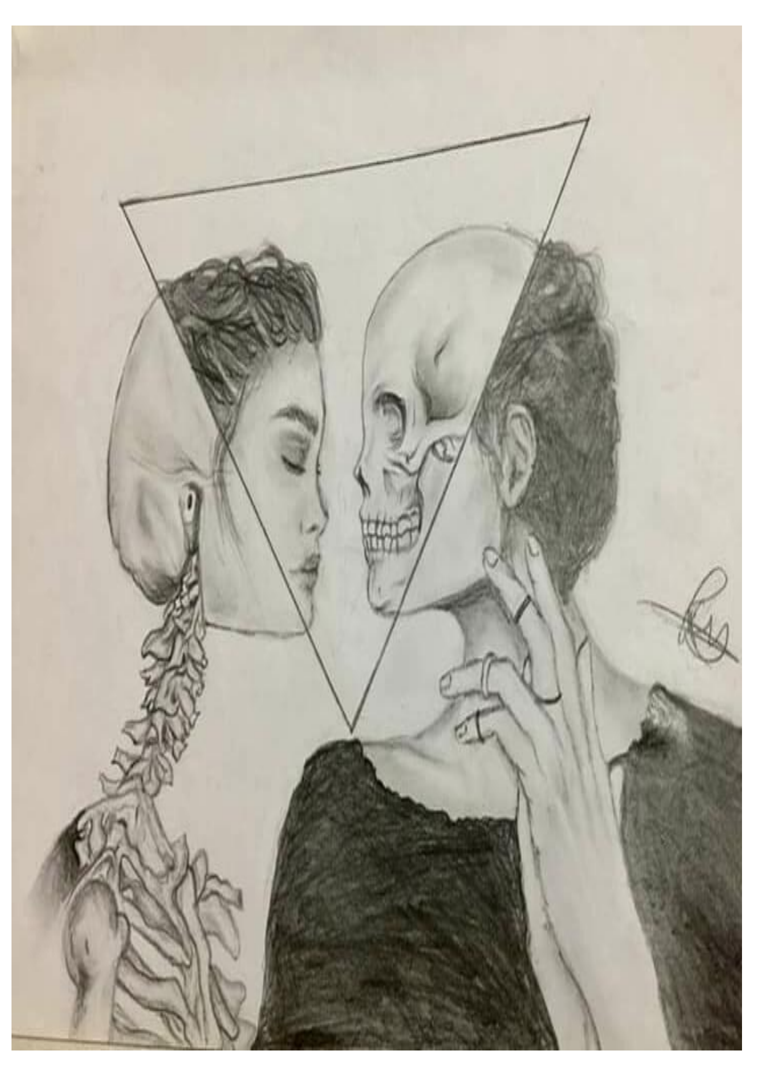
واحة النعوش

على خط حديدي قاسٍ يشق صحراء لا نهائية.. توقف - في موعده المعتاد - قطارٌ قادمٌ من أقصى الشرق.. على رصيف محطة تبعد ساعتين عن أقرب مدينة.. المحطة عتيقة منعزلة تمامًا عن بيوت واحة فقيرة.. على رصيفها تتراص توابيت خشبية متدرجة الألوان تقف منتصبة مصفوفة بشكل رأسي لتشكل لوحة تثير الانقباض في النفس.. خلف التوابيت يجلس بضع نفر متناثرين على مقاعد خرسانية بوجوم كامل.. شاخصة أبصارهم جهة القطار.. من خلفهم - على مرمى البصر غابة كثيفة من أشجار الكافور والنخيل وكتل الأشواك أحاطت الواحة وأخفتها بشكل محكم.. ما إن توقف القطار حتى بدأ الواجمون في التحرك بصمت.. رفعوا التوابيت على ظهورهم باستخدام حبل معقود يجعل التابوت ملتصقاً بظهر حامله.. أدخلوها إلى عربات الشحن بشكل آلي ومنظم.. ابتلع القطار كل ما على المحطة وتركها خالية إلا من لوحة خشبية محمولة على عامودين من حديد مكتوب عليها "واحة النعوش" وانطلق نحو قلب الصحراء.

في زمن سحيق.. اشتهرت "واحة النعوش" بصناعة أقفاص الخضروات والفواكه.. ونفس القطار الذي حمل التوابيت منذ قليل كان يحمل الأقفاص إلى أصقاع بعيدة.. فيقول الناس: "هذه الأقفاص هي الأفضل والأكثر جودة والأطول عمراً"! وفي حقبة ما.. وقع الإقليم تحت نير مرض فتاك غامض هلك فيه عدد كبير من الناس.. انتشرت العدوى سريعًا.. لم يكن المصاب يعاني طويلًا كانت الحمَّى تقتله بعد يومين أو ثلاثة.. الجنائز التي كانت تحمل الموتى إلى قبورهم.. لم تتوقف ساعة واحدة طيلة ستة أشهر! قال كبيرٌ لهم: "ادفنوا الميت داخل نعشه"!

صانعو الأقفاص صنعوا نعوشًا بدلًا من الأقفاص الشبكية.. لا شئ يباع أو يُشترى على كل حال.. كانت فكرة طيبة.. دفن الميت داخل نعشه يحبس العدوى.. ولعل هذا ما جعل موت الناس بأثر هذا المرض الأسود يتوقف بعد ستة أشهر.. حين ظهر المرض في إقليم آخر كان أهله يطلبون النعوش من الواحة.. لم يتوقف صناع التوابيت عن صناعتها من سعف النخيل.. دفْنُ الموتى داخل توابيتهم كانت فكرة نيّرة لمحاصرة العدوى!

بمرور الوقت جوّد الصناع صنعتهم.. وظهرت التوابيت الخشبية.. باتت المدن البعيدة تطلب توابيتها من واحة "النعوش" المنسية في قلب الصحراء! بعض المرفهين صاروا يطلبون مواصفات خاصة.. فظهرت التوابيت ثمينة الأخشاب.. المحفور عليها عبارات جنائزية.. المصنوعة مقابضها من المعادن النفيسة! تغيرت الواحة.. نُفِضَ القِدَمُ عن المحلات العتيقة فباتت بواجهات زجاجية وأرضيات مصقولة وأسقف مزخرفة! لم يعد صانعو الأقفاص إلى صناعتها مرة أخرى.. وبات الحديث عن زمن صناعة الأقفاص ماضيًا يثير الكثير من الضحك والقليل من الشجن!



الغرفة "39"

في ليلة من ليالي شهر مارس وصل نزيلٌ إلى الفندق الواقع على ناصية جادة منتصف المدينة.. نزيلٌ لم يُرَ من قبل ودون حقائب.. ناول موظف الاستقبال بطاقة هويته وهو يطلب منه النزول في الغرفة رقم ٣٩! بمجرد أن سمع الموظف رقم الغرفة أعاد النظر إلى وجه الضيف الجديد بارتباك وريبة:

- الغرفة ٣٩ سيدي؟

أومأ الضيف برأسه إيماءتين بطيئتين!

نقر الموظف بضع نقرات على الحاسوب الموجود أمامه فقاطعه الضيف وهو يضع أمامه نقودًا:

- يومان وثلاث ليال

أعاد الموظف إلى الضيف بطاقة الهوية وعلى وجهه نفس النظرة الممتلئة بالريبة:

- هل من حقائب سيدي؟
- لا حقائب!
- الغرفة في الطابق الـ....
- أعرف!

انصرف الضيف صاعداً نحو غرفته.. الغرفة "39"!

كانت الساعة تشير إلى التاسعة عندما صعد الضيف إلى الغرفة.. وبعد ساعة تقريبًا وصلت حقيبة جلدية صغيرة إلى الفندق مع غريب.. قال إنها باسم نزيل الغرفة "٣٩".. أخبره موظف الاستقبال – عبر هاتف الحجرة - أن ثمة حقيبة له سيرسلها له حالا مع عامل خدمة الغرف..

- لا.. سأنزل بنفسي لاستلامها!

بعد دقيقة واحدة كان بالأسفل مرتديا نفس الملابس التي وصل بها.. وبلا كلمات أخذ حقيبته ثم عاد إلى غرفته بهدوء .

عند منتصف الليل مرق النزيل الغامض - وهو ما يزال على هيئته - خارجاً من الفندق.. ولم يعد إلا في عصر اليوم التالي.. دخل الفندق دون أن يلتفت إلى أحد.. صعد إلى غرفته وظل بها حتى صباح اليوم التالي..

في المساء تعطل المصعد في الطابق الذي توجد به الغرفة "٣٩".. وكان ثمة عاملان يقومان بالتصليح لفت انتباههما صوت نقر خافت صادر من الغرفة القريبة جدا من المصعد.. أضواء الغرفة كانت مضاءة فيما النقر مستمر وبنفس الدرجة.. أخبر العاملان الموظف بما سمعاه فصعد الأخير للتحقق.. وقف أمام الغرفة منصتا.. النقر متواصل! ترى.. ماذا يفعل؟!

بعد مغادرته الصباحية عاد النزيل الغريب إلى الفندق.. وفيما كان ينتظر المصعد ربتت يدٌ على كتفه وألقى صاحبها عليه التحية.. التفت الضيف باستغراب ورد عليه التحية بعد برهة صمت..

كان صاحب الفندق قد أخطر بمخاوف موظفي الفندق تجاه نزيل الغرفة "39" فحضر على الفور.. استمع باهتمام إلى ما حكاه موظف الاستقبال عن النزيل.. عن اختياره للغرفة.. عن الحقيبة والأصوات والغموض المريب..

أمام المصعد.. دعا صاحب الفندق النزيل إلى مجالسته قليلا.. جلسا منزويين وبعد مقدمة تعارفية مقتضبة بدأ صاحب الفندق يسأل:

- لماذا الغرفة "٣٩" سيدي؟
- هل تسأل زبائنك هذا السؤال عادة؟
- فقط اذا كانوا غريبي الأطوار؟
- وهل أبدو كذلك؟
- نعم.. بكل تأكيد.. هذه الغرفة تحديدًا لا نفتحها للزبائن

قاطعه الضيف

- بسبب السفير.. صحيح؟

اعتلت الدهشة وجه صاحب الفندق.. ثم اقترب إليه وسأله

- من أنت بحق الله؟

صمت النزيل برهة وهو يتفرس في وجه صاحب الفندق ثم أخرج من معطفه بطاقة هوية مختلفة عن تلك التي اعطاها لموظف الاستقبال.. زادت الدهشة على وجه صاحب الفندق وهو ينظر إلى الهوية ويتحقق من أنها ليست مزورة.. ثم تمالك نفسه ورد البطاقة إلى النزيل وهو يسأل بنفاد صبر:

- تحقيق جديد؟ هل هذه هي الطريقة؟ حجز الغرفة والعبث بها سرًا؟ ألم تفتشوها عشرات المرات؟ هل تعلم كم خسرنا في تلك الأيام بسبب ما حدث؟ ثم هل تملك إذنا رسمياً.. أريد الإطلاع عليه من فضلك..

- ليس تحقيقاً سيدي.. أنا مجرد نزيل عادي.. حجزت غرفة لديكم.. هل هناك ما يضر؟ أليس فندقاً؟ لا رابط بين كوني محققاً وكوني أنزل في الغرفة التي قتل بها السفير.. لا علاقة مطلقًا!

- سيدي أنت لست نزيلاً عاديًا.. أنت تتصرف بغرابة.. جئت بدون حقائب.. لا تسمح لخدمة الغرف بالدخول.. تخرج وتبيت خارج الفندق دون أن تترك إشعارا.. تُسمع من حجرتك أصوات مريبة.. اسمح لي.. كل ذلك يثير الشك.. هناك شئ ما.. أقسم على ذلك !

- هل يقلقك وجود ارتباط؟

أربك السؤال المفاجئ صاحب الفندق فأسند ظهره إلى مقعده:

- لا يقلقني.. لكن الفندق لا يتحمل خسائر جديدة.. نحن نراهن على نسيان ما حدث.. وإن كان لابد من فتح الأمر فليكن رسمياً..

- أنا يا سيدي حصلت على معلومة هامة!

- معلومة؟!

- نعم.. معلومة تفيد بأن السفير تلقى رسالة هاتفية من قاتله قبل أن يصعد إليه الغرفة ويقتله ويسرق كل متعلقاته.. وهذه الرسالة هي الدافع المهم لقتل السفير.. والعثور عليها ينهي كل شئ ..

- تم تفتيش الغرفة.. بل تم مسحها مسحًا ولم يصل المحققون لشئ.. السفير ياسيدي قتل لعلاقات مشبوهة مع عصابات دولية تتاجر في البشر.. هكذا قالت الصحافة وقتئذ.. ومثل تلك العصابات لا تترك خلفها أثرًا.. وأنتم لم تستطيعوا العثور على دليل!

- اعتاد السفير أن يطبع كل شيء مهم.. كان لا يثق في التكنولوجيا.. ولاشك أنه طبع تلك الرسالة التي وصلته من قاتله.. والغرفة ٣٩ هي المكان المحتمل لإخفاء هذه الرسالة التي وصلته على هاتفه وهو هنا.. لذلك جئت أبحث عنها.. وفضلت ألا يكون الأمر رسميا حتى لا نتسبب من جديد في بلبلة..

- وبالطبع لم تعثر على شئ

- بل عثرت على كل شيء!

- حقًّا؟ كيف؟ وأين عثرت عليها؟

- أسفل النافذة.. لاحظت وجود ترميم حديث لطلاء الحائط.. نقرت على تلك البقعة فتساقط الطلاء.. وظهرت أوراق ملتصقة على القرميد محمية بأكياس بلاستيكية! تزحزح صاحب الفندق إلى مقدمة مقعده:

- وماذا وجدت في تلك الأوراق؟

- مراسلات بينه وبين عملائه تجار البشر وشريحة الكترونية و..... صورة لسيدة! سيدة كانت تقيم في هذا الفندق وقت وقوع الجريمة !

- وماذا يعني هذا؟

- يعني أن الأمر لم يكن بالصورة التي تصورها المحققون..

- كيف كان إذن؟

- السفير تراجع فجأة عن إحدى الصفقات خوفًا من شئ ما أو طمعًا في شئ ما.. وكان نزوله في فندقك الواقع في أشد المناطق ازدحاماً وسيلة للاختباء من كل من يسعى إلى قتله.. ولم يخبر أحدًا بمكانه إلا من ظن بهم الثقة ومنهم تلك السيدة صاحبة الصورة..

- وكيف عرفت هذا؟

- لقد جئت خصيصا لأعثر على الرسالة.. وعلى هذه الصورة.. صورة السيدة التي كُلِّفَت من قبل عصابات الرقيق بقتل السفير.. وأرسلت له رسالة تخبره فيها أنه لابد مقتول إن لم ينصع لأوامر الذين يورد لهم بضاعته المحرمة.. وطلبت لقاءه ليتدبرا الأمر معًا..

- ومن تكون المرأة؟ وكيف قتلته؟

- كانت تعمل معه أثناء عمله الدبلوماسي.. ثم تشاركا عملا خاصا ليكون غطاءً لتهريب الأطفال والنساء للخارج.. نزلت الفندق باسم مستعار وأتمت مهمتها.. وظلت بعدها يومين في الفندق حتى انتهاء فترة إقامتها ثم غادرت مسافرة إلى دبي ومنها إلى براغ!

- وأين هي الآن؟

نظر المحقق إلى ساعته وهو ينهض :

- هي في الطريق إلى منزلها الآن.. ولابد أن أكون في انتظارها لنتناول الغداء! ثم صافح صاحب الفندق ورحل

مخاوف ليلية

لم تشرق الشمس بعد!

ومن جديد أيقظ دوي سيارات الشرطة الحي كله!

أطللت من نافذة شقتي التي استأجرتها منذ شهرين أعلى مبنى ذي ستة طوابق.. منذ أيام كانت الشرطة هنا أيضا.. شقة بالطابق الثالث اشتعلت بها النيران والتهمت كل شئ.. حتى صاحبها السكير وجدوا بقاياه متفحمة.. قالوا ربما أسقط سيجارته في مكان ما بعد أن دارت الخمر برأسه.. فتأججت نارٌ أتت على الشقة بما فيها ومن فيها!

"هذا هو الاحتمال الأرجح" هكذا قالوا حين عثروا على جثته المتفحمة..

لكن التحقيقات تاليًا أثبتت أن الجثة لرجل مقتول.. وأن قاتله أحرق المنزل للتمويه!

الآن ثمة حادث في إحدى الشقق في طابق ما تحتي! يا إلهي الرحيم إنهم يحملون شخصًا يتساقط الدم من جسده بغزارة.. يخرج خلفهم رجلان يحملان نقالة عليها جثة مغطاة بالأبيض!

ما الذي حدث؟ جلبة.. ناس يتزاحمون.. يحوقلون.. يتساءلون.. ووجوههم يعربد فيها الجزع!

يأكلني الفضول لكي أعرف لكن.... لا أريد الاقتراب من المنغصات.. نعم.. فسؤالي سيثير الانتباه وسيقول أحدهم:

"هذا جارٌ.. لابد وأنه يعرف شيئًا"!

وربما تستدعيني الشرطة لتعرف إجاباتي على بعض الأسئلة السخيفة.. والانتظار.. كم أكره الجلوس منتظراً في ردهات الجهات الرسمية.. أجلس في زاوية ما فيما يعبر الموظفون والناس غير مبالين بالانتظار الذي يأكلني.. لا يستطيع أحد أن ينوب عني فيما أنتظر من أجله.. لا يمكنني المغادرة إلا بإذن ما.. يا إلهي! أكره تلك الأشياء كلها.. ولأنني أمقتها حقًّا فلن أسأل.. سأعود للنوم.. لن أبرح شقتي.. بل لن أبرح السرير.. وسيعطي إغلاق النوافذ والإضاءة والتعتيم الكامل ظنًّا كافيًا بأنني لست متواجدًا!

والآن.. بعد أن أصبح البيت صندوقًا مغلقًا على ظلام دامس.. مرحباً سريري العزيز.. احتضني بدفئك وأغرقني في النوم.. نعم النوووم.. النووو... ياإلهي ماهذا؟! ثمة صوتٌ كَسَرَ السكون فجأة.. كأنه ارتطام مكعبات الثلج بقاع قدح زجاجي.. أُرهف سمعي.. لا شئ.. ربما أنا واهم! لكن.. لقد سمعت الصوت بالفعل! ربما صوتٌ ما في الشارع التقطته أذناي بشكل خاطئ.. نعم هو كذلك.. أي ثلج وأي قدح؟!!

ياللسخف!

النوم يعاندني.. أتمدد في السرير بلا حراك.. الظلام حولي.. لا أرى شيئاً رغم أن عينيَّ بكامل اتساعهما تجولان في الغرفة.. بعض الاسترخاء سيسحب النعاس لعقلي اليقظ.. سأغمض عينيَّ ربما يعجل ذلك بالنوم..

الصوت مرة أخرى! نعم!

لقد سمعته.. صوت ارتطام مكعبات الثلج بكأس زجاجية فارغة! استويت واقفًا قرب حافة السرير.. لالا ليس تخيلاً.. أثق أن أذنيَّ قد التقطتا الصوت على حقيقته تمامًا هذه المرة.. إنه قادم من الردهة.. يا إلهي.. ضوءُ الغرفة تعطل! أنا لا أرى شيئًا.. لابد من السير في الظلام الدامس حتى الردهة أو باب البيت.. أحاول أن أتذكر الأشياء التي من المحتمل أن اصطدم بها.. أسير بحرصِ كفيفٍ يتحسس طريقًا غير معتاد..

اقتربت من منتصف الممر المؤدي إلى الردهة.. وفجأة خرج وميضٌ قوي من باب الحمام الذي يبدأ الممر من أمامه.. أضاء لجزء من الثانية وانطفأ! ثم صوتٌ قريبٌ لمكعبات الثلج من جديد! صرخت:

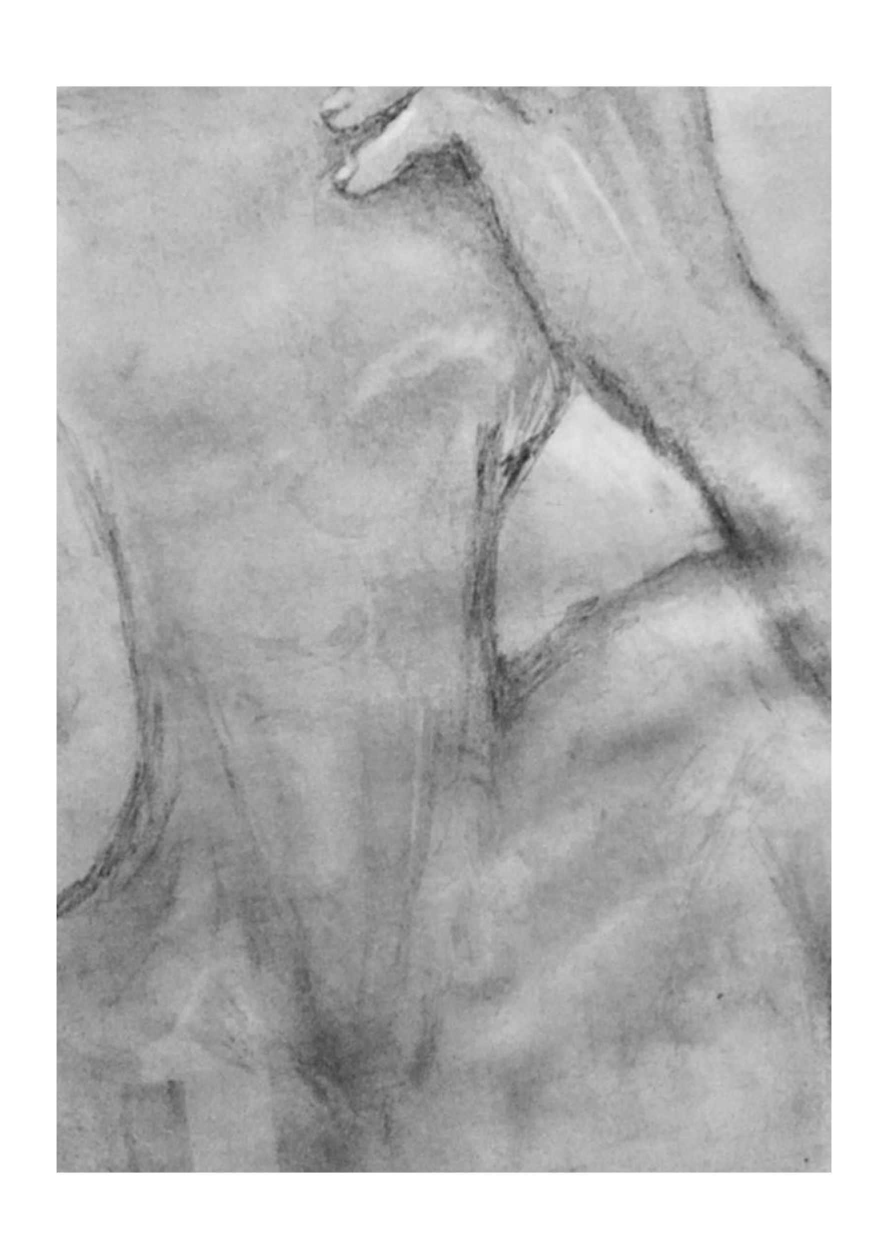
- من بالبيت؟ من هنا؟

كان الوميض قد كشف الممر فركضت على صورته التي التقطتها عيناي.. وبكل قوة اندفاعي ارتطمت بعنف في لوح زجاجي فارتددت ساقطًا على الأرض.. يتملكني الألم والرعب.. من أين جاء هذا الحائط الزجاجي؟ والوميض.. والصوت؟! ما الذي يحدث؟ لا أرى شيئاً.. لا أدرك الأبعاد.. أشعر أن أحدًا معي في البيت.. ثمة أحدٌ هنا أناديه ولا يرد! هل يريد قتلي؟! لعله هو الذي قتل الجارين.. يا إلهى! قدماي بالكاد تعينانى على النهوض.. أريد أن أركض ولا أستطيع.. يملؤني الذعر.. أشعر بالعجز.. أتقدم ببطء.. أخشى الارتطام مجددًا بالحاجز الزجاجي.. يداي تتحسسان في الظلام.. لكن الحاجز غير موجود.. يداي لا تجدانه.. أتقدم أكثر.. أريد الوصول إلى الردهة لأشعل الضوء.. أريد الاقتراب من باب الشقة.. الخروج من تلك المتاهة المخيفة هو كل ما يملأ عقلي الآن.. اقتربت من نهاية الممر.. قدماي المخدرتان تثقلان خطواتي.. تبطئان سرعة الوصول إلى قابس الضوء..

في الردهة صوت ما.. كأنه صوت طائر مضطرب يرفرف في حيزها الضيق.. أشعر به فوق رأسي تمامًا! من أين جاء؟! ربما دخل من النافذة قبل أن أغلقها؟ يداي اللتان كانتا تتحسسان اللوح الزجاجي أصبحتا الآن تحميان وجهي ورأسي خشية ارتطام الطائر الغامض بي! أخيرًا وصلت يدي لقابس الضوء.. اللعنة.. إنه لا يعمل! لا مناص من الخروج.. سأتجه صوب الباب.. أريد الخروج .. بكل الذعر اتحرك.. قدماي تزدادان ثقلًا.. وفجأة.. أمسكت يد ضخمة بكتفي.. تجمدتُ مرعوبًا.. لا استطيع الحراك.. كأن أصابعه تغوص رويدًا في لحمي! الصرخات لا تخرج من حلقي.. الظلام.. رفرفات الطائر.. وصوت مخيف .. ينادي باسمي!

حشدت كل قوتي محاولا الصراخ.. حين انطلق صوتي الحبيس.. أضاء البيت! وجدتني في السرير.. النافذة مفتوحة.. إلى جوار السرير يقف حارس المبنى.. ينكز كتفي لأستيقظ وقد أفزعه صراخي.. جاء في موعده المعتاد.. فتح الباب بالمفتاح الذي يحتفظ به ليوقظني ككل يوم.. يدور في فضاء الحجرة طائرٌ هاربٌ من قفصه بالطابق الرابع.. أمسك الحارس به وانصرف بعد أن تأكد أني قد غادرت السرير..

حين شرعت في ارتداء ملابسي استوقفني صوتٌ فجأة.. صوت خبطات حلقات نحاسية بزجاج النافذة.. استوقفني لأنه كان يشبه جدا صوت ارتطام مكعبات ثلج بقاع قدح زجاجي!



من المقبرة

من نافذة الطابق التاسع والخمسين في برج زجاجي يتوسط حي الأعمال في المدينة.. ألقى ناظريه ثم ابتسم وقال:

- من المقبرة!

كان هذا جواب أحد أكثر الرجال ثراءً على سؤال ألقته صحفية تجلس بارتباك أمام هيبة الفخامة التي تشع من كل شيء حولها:

- من أي شئ بدأت تلك الثروة؟!

قبل هذه اللحظة التي ينظر فيها الثري من النافذة.. قبلها باثنتين وخمسين سنة.. وفي قرية من قرى الشمال النائية.. أقبل رجلٌ مجهولٌ في بداية شيخوخته.. لا أحد يعرف من أين أتى؟ إلا أن لكنته الغريبة تشي بأنه بعيد جدا عن مسقط رأسه! ظهوره المباغت وطباعه الفظة وبنيته الضخمة وملامح وجهه العابسة أثارت الأسئلة وأزكت نار الفضول! قيلت عنه حكايا لا أساس لها غير التكهن! هو سجين هارب.. ربما هو قاتل يطارد أحداً أو يطارده أحد.. بل لص يختبئ هنا بسريقته!

رغم أُنسه بالناس لم يأتنس به الناس! كانوا يخافونه ويتحاشون لقاءه والتحدث معه.. أصبح بينهم معزولا عزلة غول في قرية أليفة!

بعد أعوام أصبح وجود الرجل الغريب في القرية أمرًا عاديًا.. بل إن كبيرها اصطفاه جابيًا يجمع له المال من الزراع.. ولما حظي بثقته عمّر له بيتًا على أطراف أراضيه الشاسعة.. ولما أحبه زوجه من فتاة فقيرة أنجب منها طفلاً يمرح مع أقرانه الصبية دون أي تحفظ.. لم يعد الناس يتساءلون عنه رغم أنهم مازالوا يجهلون كل شئ عنه.. حتى زوجته لم تعرف أكثر مما يعرفه الناس.. غير أن أحد الشهود على عقد زواجه قال إنه لمح عنوانًا في بطاقته الشخصية يقع في الجنوب السحيق وأنه يبعد عن القرية عشرين ساعة متواصلة بالقطار!

في القرية امرأة عجوز تكنز المال بشهوة بخيل لا يخشى الموت.. تلتقط كل ما يقع في طريقها ويساوي شيئا.. تخزن ثمنه في حرز مكين! "حتى خزانة المصرف غير آمنة" هكذا كانت العجوز تؤكد لنفسها كلما راودتها فكرة نقل خبيئتها من الأموال والذهب إلى المصرف! "لا أحد سيحرص على خبيئتي مثلي"! في الواقع هي نجحت جدا في هذا.. فأبناؤها وأحفادها يبحثون بدأب عن كنز الجدة.. يراقبونها حتى وهي نائمة! لكن.. لا أثر للمال.. كأنما ألقت عليه تعويذة أخفته عن أعين الناظرين!

كل بضعة أيام.. تخطو العجوز نحو بقَّالي القرية بقدمين مرتعشتين.. وبأثقال ثمانين عاما فوق كتفيها الهزيلتين.. تستبدل النقود بالبيض.. وتحول العملة القديمة إلى أخرى جديدة.. وتختزل الفئات النقدية الصغيرة في أكبر فئة ممكنة!

لم تكن العجوز تخفي كنزها في غرفتها.. ولا في كوّة ما هنا أو هناك.. لم تكن تدسه في قن الدجاج أو في سراديب الأرانب كما كان يظن أبناؤها الطامعون.. بل لم تكن تحتفظ به في بيتها! هذا المال الذي كان ينمو كل يوم يحتاج إلى مكان كبير وآمن.. مكان لا يعبث به أحد.. لايطأه أحد.. مكان يخاف أن يطأه أحد.. هذا المال يحتاج إلى مقبرة!

في طريقها من القرية وإليها كانت العجوز تمر بقبر زوجها.. فتعرج إليه زائرة.. الجميع يعرف أن العجوز دائمة الزيارة لقبر زوجها.. تلك عادتها منذ سنوات.. وإن لم يثر وفاؤها لزوجها الشفقة فبالتأكيد لن يبعث على الشك.. صار من المألوف أن يلتقيها الناس داخلة أو خارجة من الغرفة التي تضم القبر.. تلك الغرفة ذات النافذة العالية الضيقة.. كنوافذ الزنازين.. تضئ للمساجين محبسهم ولا تمكن أحدا منهم من الهروب!

بعد انتهاء الموسم الدراسي.. ينتشر صبية القرية في الانحاء.. يتقافزون ويركضون طيلة الوقت.. يمارسون لعبة الاختفاء.. وفيما كانوا يبحثون عنه.. كان طفل الرجل الغريب مستلقياً فوق غرفة القبر.. القرميد الناتئ من جدار الغرفة يعتبر سُلماً مثالياً لطفل خفيف الوزن كثير الحركة.. العجوز داخل الغرفة تدفع الهيكل الحجري الثقيل للقبر فتنكشف حفرة لها غطاء خشبي سميك ذي أقفال ومزاليج.. تخلع ملابسها وتخرج من نطاقٍ مشدود على خصرها صرةً محكمة.. تضعها بهدوء في جوال بلاستيكي ممدد إلى جوار عدة أجولة وآنية طهو ممتلئة عن آخرها بالنقود والذهب!

طيلة سنوات.. لم يعلم أحد ما تفعله العجوز.. لكن هذا الطفل الذي أسقط رأسه في هذه اللحظة وشاهد من النافذة الضيقة العجوز مع كنزها الثمين.. قد عرف كل شيء!

ما زالت الصحفية تحاول أن تفسر إجابة الرجل الثري الذي ينظر من النافذة على حي الأعمال المملوك له.. وهو يستذكر تلك الليلة التي كسر فيها مزلاج الباب الحديدي لغرفة القبر!

مسافرتان

لا تختلف الابنة عن أمها تقريبًا.. متشابهتان جدًّا.. متشابهتان في الصوت وطريقة الجلوس والتفكير.. ثمة سؤال سيطرأ حتمًا على عقل من يهتم بهذا التشابه: كيف يزول الزمن الفارق بينهما ويلتقيان في نقطة التطابق تلك؟!

في الحقيقة لا يمكن الحديث عنهما هكذا.. حسنًا.. هما الآن في رحلة قصيرة.. الابنة جالسة إلى جوار أمها في مقعد السيارة الخلفي.. وعلى مقعد القيادة سائق عجوز مخلص يعمل عندهما منذ عشر سنوات تقريبًا..

تتناسق الألوان على الابنة التي استقرت في موضعها بهدوء.. يبدو الأصفر عليها أكثر إشراقًا ووضوحًا.. ترقب أمها بتوقير كبير وهي ترتب جلستها قبل الانطلاق..الأم بكامل احتشامها تضع حقيبة يدها على ركبتيها وتعطي السائق أمرًا لينًا بالانطلاق.. للأم هيبة القادة وإن كانت ملامحها تعكس الكثير من بساطة ولطف روحها.. طابعها ارستقراطي بغير تكلف فهي مثلًا لا تأتي بأفعال أو أحاديث مفاجئة.. كما أنها لا تضحك كثيرًا رغم أن الإبتسامة لا تكاد تفارق محياها.. ولا تفقدها الإطراءات ولا المساحات الممنوحة للكثيرين حولها أي قدر من هيبتها..

تتشابه الابنة مع أمها في كل ذلك.. لكن هي لم تكتسب كثيرًا من خبرات الحياة بعد.. أو لنقل إنها لم تخض سباقات كتلك التي يخوضها الناس في حياتهم ويخرجون منها وهم فاقدون لصفاتهم الغضة وبراءتهم الطاهرة.. لم تخسر شيئًا تقريبًا من سمات الطهر والبساطة.. هي ليست صغيرة جدًا.. خرجت من طور الطفولة لكنه لم يخرج منها.. صوتها الخجول الرطيب يترك أثره بمجرد سماعه.. الارتباط بين الأم وابنتها الوحيدة وثيق جدّا.. لا تغيبان عن بعضهما أبدًا.. ولا يحدث لأي منهما حادث إلا وتعلمه الأخرى بطبيعة الحال..

السيارة تقطع طريقًا زراعيًا غير ممهد يفصل بين حقول شاسعة لا تصل العين لنهايتها.. وبين مجرى مائي يصدر تياره العنيف هديرًا متواصلًا.. تتهادى ببطء شديد.. الفتاة ترسل ناظريها للأفق الفسيح واضعة ذقنها على كفها.. متكئة بمرفقها على قاعدة النافذة.. الصمت المستمر منذ خروجهما من المنزل تقطعه الابنة لتسأل أمها دون أن تنظر إليها أو تغير من وضعها المستغرق: "صديقتي تقول إنها تريد العيش في بيت ريفي منعزل.. هي تحب الابتعاد عن المدينة.. لكن هل يمكن حقًّا أن تتكيف مع حياة خالية من كل ما اعتادت عليه"؟

أعطت الأم لنفسها برهة من الصمت ثم أجابت بصوت هادئ واثق: "كلٌّ يا عزيزتي له ميوله.. الجميع بالطبع لا يحبون نفس الأشياء.. والأذواق لا تتطابق.. البعض لا يجد راحته في الصخب المتواصل.. يتوق للابتعاد عن المدن.. لا أبالغ إن قلت إن الزحام وحده قد يصيب تلك الأرواح بالجنون عزيزتي..." ثم نظرت الأم إلى فتاتها وأردفت مبتسمة: "ثمة خطوات صعبة قد نخطوها مضطرين.. الحياة لا تعطينا خيارات دائما صغيرتي "! أنهت الأم عبارتها بابتسامة هادئة ثم عادت تطالع الطريق!

استمرت السيارة في قطع الطريق السيئ بصورة بطيئة رتيبة انعكست على هيئة الجالسين بداخلها .. الأم منتبهة جدا إلى الطريق.. لا تحيد بناظريها عنه أبدًا ربما أكثر من السائق نفسه! قطيعٌ من الخراف لاح قادمًا في مواجهتهم.. على السيارة أن تتوقف تماما لتعبر الخراف مع راعيها الصبي عبر فراغين ضيقين جدًّا عن اليمين والشمال.. لم تحرك الأم ناظريها عن الطريق.. ثمة حوادث عنيفة تقع لمسافرين هنا تلك الأيام.. هي وابنتها والسائق العجوز قد يكونون غاية سهلة لقاطع طريق يتربص بالعابرين!

غمغمت الابنة في ملل وهي تتابع مرور الخراف ثم القت برأسها على كتف أمها التي لم تزحزح يديها عن حقيبتها: "الحياة هنا هادئة صافية.. لكنها مملة.. أعتقد أن هذا سبب كافٍ للابتعاد عن التفكير في هذا الأمر.. تخيلي يا أمي اننا نعيش ونعمل ونتعلم في هذا المكان .. ستكون حياتنا رتيبة مثل حياة تلك الخراف التي تساق إلى مكان ما.. نستيقظ للكدح في الزراعة أو الصيد ثم نعود للنوم وهكذا دواليك .."! قهقهت الفتاة وكانها تذكرت مشهدًا مضحكًا ثم أكملت: "تصورت أننا نعيش ههنا الآن ثم هاجمتنا الذئاب أو أي شئ من تلك الضواري البرية ونحن وحيدتان.. سنكون طعامًا لذيذا يا أمي"! علت قهقهة الفتاة وهي تصف المشهد لأمها.. ابتسمت الأم ابتسامة خفيفة ونظراتها لا تفارق الطريق!

تحركت السيارة أخيراً بعد عبور الخراف جميعها.. عادت الفتاة إلى النافذة ترقب منها الحقول المترامية وهي تعبر من أمامها ببطء شديد لتستيقظ فجأة من استغراقها على صوت ارتطام شديد وتوقف مفاجئ للسيارة.. صرخت مذعورة وهي تسأل عما يجري.. لكن رجلًا ضخمًا ذو لحية مهملة وشارب كثيف.. يخرج شعرصدره الكث من بين ضفتي فتحة جلبابه الريفي.. يحمل ساطورًا ويقف أمام السيارة التي ارتطمت بجذع ضخم..

اقترب الرجل الغريب متعجلًا قلقًا من باب السائق ثم سحبه من نافذته وألقاه على الأرض.. الفتاة تصرخ وتتشبث بأمها التي بدت ثابتة ساكنة.. بعصبية شديدة لوح صاحب الساطور للأم وابنتها.. أمرهما بالنزول.. بلهجة صارخة حذرهما من إصدار أي صوت وإلا ستموتان قتلًا بلا رحمة.. ثم اقسم على ذلك ونكز الأم في ركبتها بسلاحه.. كان واضحًا أن الرجل يريد الانتهاء من مهمته سريعًا قبل أن يراه أحد.. انتهت حيلة إلقاء الجذع أمام السيارة بنجاح.. ولم يبقَ إلا الظفر بما لدى السيدتين والفرار.. نظر صاحب الساطور إلى السائق الذي يتلوى صامتًا من الألم ليطمئن أنه ليس مصدر خطر.. رمق الطريق من الجهتين سريعًا ليعود للسيدتين اللتين لم تغادرا السيارة إلى الآن.. يصرخ في الفتاة أن تنزل..يأمرها أن تخلع حليها.. استجابت الفتاة باكية..

وفيما كانت تهم بالنزول كانت الأم تطأ الأرض من الجهة المقابلة.. وقف الرجل ملوحًا بسلاحه الحاد وهو يهدد ويتوعد بارتباك وحذر.. كانت الأم تنظر بهدوء إلى الطريق وما حوله من حقول فسيحة.. لم تلتقط عيناها أي أحد.. بينهما وبين أقرب شخص الآن على الأقل بضعة كيلو مترات! التفت اللص الوجل إلى السائق الملقى على الأرض.. توجه إليه وركله بقدمه ركله عنيفة.. استدار عائدا لرهينتيه.. فإذا الأم تصوب مسدسا نحو وجهه! فتح الرجل عينيه بكامل اتساعهما.. تراجع خطوة إلى الخلف.. اندفع نحوها بسلاحه هاويًا به على رأسها.. لكن الرصاصة التي فجرت رأسه كانت أسرع منه.. هوى بكل ثقله في المجرى المائي فجرفه التيار المندفع بعيدا في لحظات!

سريعاً أعادت الأم المتماسكة المسدس إلى الحقيبة.. احتضنت فتاتها المنهارة بقوة.. قبلتها.. نظرت لعينيها.. ببضع كلمات طيبات أعادتها للسيارة.. أنهضت السائق العجوز.. استند إليها حتى جلس على مقعده.. مدت يدها لمسند المقعد الخلفي والتقطت زجاجة ماء.. شرب السائق.. تناولت بيسراها زجاجة الماء بينما يمناها تربت على كتفه.. "نحن بخير" قالتها وهي تنتزع ابتسامة لتطمئنه بها.. رمقت الطريق مجددًا للتاكد من أن صوت الرصاصة لم يثر الانتباه.. وأن أحدًا لن يقترب ليتحقق مما يحدث.. استجمعت قوتها..حركت الجذع الثقيل وفتحت الطريق أمام السيارة.. تأكدت أن لا شئ من آثارهم في المكان.. جلست في مكانها.. أمسكت بيد ابنتها وبثبات طلبت من السائق أن ينطلق بأسرع ما يمكنه!

لم يخطر يوماً ببال الفتاة الرقيقة أن تعيش لحظات كتلك التي عاشتها منذ قليل.. انهارت على صدر أمها مصعوقة غير قادرة على النطق.. احتضنتها الأم هامسة لها وهي تنظر إلى الطريق:

"ثمة أمور نفعلها مرغمين عزيزتي حين لا تعطينا الحياة خيارات كافية"!

عازف التشيللو

على الجانب الآخر من الشارع المتعرج المزدحم بالسيارات والمارة. وتحت طبقات من الأغطية والملابس الرثة.. وبين واجهات المحال الزجاجية العريضة البراقة..جلس شريدٌ في سكون كامل.. لولا ساقاه الممدتان بعرض الرصيف.. وقدماه البشعتان البارزتان من نهاية بنطاله لظنه الرائي كومة من الأشياء البالية!

النشاط الاعتيادي وحركة الناس غير الآبهين به.. تشيان بأنه غير غريب عن هذا المكان! ولولا آلة التشيللو القديمة التي يضعها الى جواره مستندة إلى الحائط.. ما التفت إليه أحدٌ وما أثار وجوده أي فضول!

ظل الأبنية المجابهة يمتد شيئا فشيئا.. يقهر نور الشمس فيزحف مرتفعا على الحائط المستند إليه صاحب التشيللو.. افترش الظل الشارع كله.. وحين أتمت الشمس تواريها خلف الأبنية الشاهقة.. دبت الروح في الجسد الساكن منذ ساعات وانبعثت فيه الحياة.. رويدا رويدا تحركت أصابعه وقدماه.. ابتعد بظهره قليلا عن الحائط وهو يسحب قدميه اليه.. بخمول ثنى ركبتيه ليتخذ وضع القرفصاء.. بعينين نصف مفتوحتين التفت يمنة ويسرة.. كأنما يتأكد أنه لا جديد طرأ على الوقت والمكان.. تثاءب ثم مد يده والتقط التشيللو الذي لم يكن باقيا من أوتاره غير وترين! برفق بالغ مرر يده عليه.. كأنه من زجاج رقيق ثمين يخشى عليه الخدش.. افترشت وجهه علامات انفعال.. تماما كتلك التي تبدو على وجه عاشق يمسح شعر معشوقته في لحظة حب جارف!

من صندوق خشبي مستطيل شبه محطم.. أخرج عصا العزف.. مسحها بنفس الطريقة وظهر على وجهه نفس الانفعال.. نهض حاملا التشيللو فوق ذراعيه المتوازيتين ممسكا بالعصا بين أصابعه.. جلس على الصندوق الخشبي وبرفق أنزل التشيللو بين قدميه متخذا وضعية العزف المناسبة.. رفع العصا قليلا في الهواء وبيده الأخرى وازن الوترين.. ثم أغمض عينيه وأخذ يحرك رأسه وهو يغمغم.. كانت تلك طريقته في استحضار اللحن.. لفتت وضعيته انتباه المارة.. توقف عن الغمغمة وببطء شديد نزلت يده التي تحمل العصا على الوترين المشدودين..

وبدأ صوت الموسيقى يظهر ويطغى على ضوضاء المكان.. كان مغمضا عينيه بقوة كأنه يقبض على الإحساس والنغم بين جفنيه! لم تكن آلة التشيللو القديمة ذات الوترين الرديئين تعطي لناظرها أي ايحاء بامكانية اخراج أي موسيقى صافية منها.. لكن هذا الشريد يعزف عليها كالملائكة.. ينطقها لتصدح بصوت آت من الجنة.. الشريد وآلته شيء واحد.. رأسه تميل مع كل حركة موسيقية للحن.. حالة توحد لا يمكن إغفالها! انفعال شديد يعلو قسماته.. رهافة وتأثر ينضحان من حركة أصابعه وقبضة كفيه وتعبيرات وجهه.. العزف البديع استوقف المارة.. الدموع تنسال من عيني العازف.. كان مثيرا للإعجاب والشفقة في آن واحد.. ماهر جد في عزفه.. يؤدي بطريقة كبار العازفين المشهورين ذوي السترات السوداء..

ومثلما بدأ مقطوعته الموسيقية بسلاسة ساحرة.. انتهى بذات السلاسة.. رفع قوس العزف بهدوء ثم استفاق من حالة الانفصال عن العالم التي تلبسته! مع عودته صفق الجمهور المتابع بحرارة.. وبدأت العلبة المعدنية الصغيرة بجواره تستقبل القطع النقدية.. بينما العازف يمسح دموعه ويتهيأ لعزف جديد!



بقاء

من فجوة في سفح ربوة رملية.. وسط صحراء قاحلة.. وتحت شمس لاهبة.. وجفاف لا يتصور معه وجود أي حياة.. أخرج الجوع انثى عقرب لم تأكل منذ ثلاثة أسابيع.. وقفت ساكنة بلا حراك كأنها قطعة من الصحراء.. تنتظر بصبر وفير أي حشرة يجعلها سوء حظها فريسة مناسبة.. في هذه الساعة الساخنة.. يتمدد من الربوة ظلٌّ قد يلوذ به بعض سكان هذا القفر هرباً من قيظ قد يفتك حتى بالضواري.. ومن بين الآتين حتمًا شئ ما يصلح للعشاء!

من بعيد ظهرت نملة سوداء كبيرة.. تترنح من شدة الحر وصعوبة السير في الرمال الساخنة.. النملة تعيش في قرية بعيدة.. خرجت مع سربها يجمعون حصتهم من القوت.. لكن سرب الجراد الجائع باغتهم.. هاجمهم بشراسة.. افترس معظم السرب.. ولم ينج سوى القليل ممن أدركوا الركض متفرقين لحظة الخطر!

النملة تحتاج أن تلملم قواها الخائرة.. والظل الممدود في سفح الربوة هناك سيساعدها كثيرًا على ذلك.. وربما تتلقى إشارة من رفقائها الذين يبحثون عنها الآن.. فتسترشد بها إلى قريتها المطمئنة.. بوحشة شديدة وحذر جم اقتربت النملة من الربوة.. واستقرت في بقعة الظل.. ثم رفعت قرناها للأعلى تستكشف الوسط المحيط دون أن يغادرها الحذر..

منذ لاحت النملة من بعيد.. لم تحرك أنثى العقرب عينيها عنها! هي تعرف ماذا ستفعل.. كل ما كانت تريده أن تقترب النملة.. أن تأتي إلى الربوة.. أن تقف تحديدًا في تلك البقعة التي تقف فيها الآن! رفعت ذنبها للأعلى وضخت فيه جرعة من السم.. جرعة كافية لقتل نملة سوداء ضخمة.. وتسللت صوب النملة المشغولة بتلقي إشارات أقرانها ببطء حذر.. تستطعم أنثى العقرب مذاق النملة وهي تستعد لغرس ذنبها القاتل في جسدها الطازج!

لم تكن النملة مطمئنة.. الربوة تثير الريبة.. الظل المتمدد موئلٌ لمفترسات يفقنها حجمًا وقوة.. في غمرة القلق التفتت النملة على صوت حفيف قريب.. تراجعت إلى الخلف سريعًا.. أفلتت من ذنب العقربة المسموم الذي انغرس في الرمال قريبًا من إحدى أقدامها الوسطى.. استوعبت النملة الهجوم.. أدركت أنها لن تنجو بالهرب.. حفزت أنثى العقرب كلابتيها وجعلتهما في وضع الانقضاض.. ستتثبّت بهما النملة لتتمكن من غرس الإبرة المسمومة في جسدها.. لم تكن أنثى العقرب في كامل قوتها.. معدتها ضامرة من الجوع وكذلك النملة.. لكن الرغبة في الحياة تبدو أقوى من الرغبة في سلب الحياة! دارت العقربة حول النملة فيما الأخيرة تدور معها عكسيًا.. بدأت العقربة هجوماً مباغتًا.. أطبقت بكلابتيها منقضة على رأس النملة التي وقفت على أقدامها الخلفية.. ثم هوت بكل ثقلها على ظهر العقربة فعضتها عضة نافذة. وبإحدى قدميها الأماميتين وطأت منبت الذنب فأعجزتها عن تحريكه.. عجزت الكلابتان تمامًا عن مساعدتها في الخلاص.. واصلت النملة عضَّ العقربة حتى خارت تمامًا.. لم تتركها غير جثة هامدة!

فيما كانت النملة تلهث من شدة العنت.. كان ثمة شئ ما يتحرك فوق الربوة.. كان موجودًا منذ وقت طويل لكن لم يشعر به أحد.. وحين بدأت النملة الجائعة في تناول العقرب تحرك الشئ الغامض بهدوء حتى اختفى تمامًا!

لا توجد أي إشارات أو روائح تلتقطها النملة لتعلم أن الرفقاء قريبون.. تناوُل العقربة سيمنحها القوة والشبع لكن لن يذهب عنها الخوف.. الكشافون إن لم يظهروا في وقت قريب ستهلك حتمًا.. مرت ساعات طويلة.. أظلمت الصحراء مرتين.. وفي صبيحة اليوم الثالث التقطت هوائيات النملة إشارة ما تقول إن فردًا من السرب في مكان قريب.. هرولت النملة صوب الاتجاه المقصود.. عند جذع صبار يحتضر كانت الإشارة أكثر وضوحا.. اندفعت بكل قوتها نحوه..

لكن.. ثمة حدث أوقفها فجأة.. علقت إحدى أقدامها في شئ قوي مرن ثم علقت أقدامها الأخرى وهي تحاول الفكاك.. شرك من خيوط عنيدة أسقط النملة وأعجزها عن الحركة تمامًا.. رمقت النملة شقيقات لها يصارعن ذات الخيوط خلف الصبارة وأخريات قد استسلمن للعجز الكامل عن الخروج من الفخ القاتل.. من جوف الصبارة خرج وحش زغبي أسود ذي ثمانية أرجل وأربعة عيون يقترب منها باختلاس.. لم يكن غير العنكبوت الذي راقب المعركة عند التلة.. بفحيح عتيق قال العنكبوت للنملة وهو ينظر في عينيها من أقرب نقطة واللعاب يتقاطر من فمه:

_ مرحباً عزيزتي.. ترى.. كيف تشعرين الآن وأنت وجبتي التالية ؟!

كان هذا آخر ما سمعته النملة قبل أن يظلم أمامها العالم.. إلى الأبد!

اللعنة!

سارت سنوات عمره العشرون وهو يسمعها بصيغة المديح:" أنت تشبه جدك" ... لم ير جده أبداً ، كذلك والده ، فالجد مات وابنه صبي لم تتشكل أوعية ذاكرته بعد، لا يملكون حتى صورة له ، يعرفون سيماه وسماته ممن بقي من ذوي القربى الذين عاصروه ، يقولون كان مهاباً وقوراً حكيماً عادلاً يقضي حوائج الناس ، الحفيد يحب أن يشبه به ، لقد امتلأ كبراً بهذا، وكلما قرنوا شيئاً له بوالد ابيه زادت غبطته ..

الجد كان مزواجاً ،هذا مما كان يشار له بالإعجاب ، لولا أنه لم ينجب من نساء كثيرات غير ابن وحيد ، وباندفاع لسد حاجياته العاطفية بعد غياب الأب صنعت أمه الفخورة منه فتى مبالغاً في تدليله ، يقولون إن قدماه لم تلمسا الأرض إلا بعد ثلاث سنوات ،وانه حتى صار شاباً يافعاً لم يحمم نفسه أو ينام بعيداً عن أمه ، وأنه كان يبكي صارخاً لها كالأطفال أحياناً حين ترفض أن تلبي أياً من مطالبه ، زوجته عانت بصبر من طفولته المتأخرة وفرط دلاله، وعاشت معه سبعة عشر عاماً بغير إنجاب، وبعد عدة أعوام غابت فيها عن البيت والعائلة ، عادت لهم تحمل صبياً ، لسبب مجهول لم يفرح اخوة الزوج ومن خلفهم بالصبي، استقبلوا الحدث بلا مبالاة واضحة ، لم تكترث الأم وعزمت ألا تنشئه كما نشأ والده ، استبدلت دلال أم زوجها بالقسوة والحدة ، كانت فظة ولا تسمعه إلا ما يسوءه ، فنما الإبن على غير ما كان أبوه وبدا جلياً أنه ورث الوقار والحكمة من جده الراحل ..

مآثر الجد لا يتوقف ذكرها ، حكايات كثيرة عن مجابهة الخصوم وحل النزاعات وإكرام الضيوف والقاصدين جعلته رمزاً للعائلة ، وإن ما يبعث في نفس الحفيد الفخر والكبرياء المطلق هو مشابهة الجد في شئ من هذا ، وفي عزاء والد الحفيد الحاشد حدث أن ناداه كبير العائلة وهو أحد رفقاء الجد والآمر على جميع شؤونها ،

كان رجلاً طاعناً تهدلت تجاعيده ،عيناه المحتفظتان بصرامتهما تعطيان فكرة عن سطوته وجاهه القديم ، يجلس طيلة الوقت ، وجسده الممتلئ يحتاج أكثر من يدين للمساعدة دوماً ، لا يكاد يقدر أن يرفع رأسه من فرط الوهن ، فإذا تحدث إلى أحدهم ظل ناظراً إلى الأرض وهو يفعل هذا.. الأطباء والمحيطون به دائما يقولون إن اعتدال عنقه " معاناة حقيقية" ...قبّل الحفيد يد الرجل وجلس إلى جانبه ، لم ينظر الرجل العجوز إلى الأرض ، بل كانت عيناه تواجه عينيه مباشرة ، لا يمكن لأحد في العالم أن يعرف ماذا عنت نظرته في تلك اللحظة ، لكنها لا تحمل مشاعر طيبة ، جلس الحفيد إلى جوار الرجل ، نظر إليه مطولاً ،أشار له بإشارة الاقتراب أكثر ، وضع الحفيد أذنه امام فم العجوز، تغيرت ملامح الشاب وبدا عليها الذهول ، لم يتوقف العجوز عن الحديث ، اغرورقت عينا الشاب المستمع بالدموع وارتجف جسده حاول المقاطعة اكثر من مرة لكنه لم يمنح الفرصة ، انهمر فجأة في البكاء ، حاول عبثاً ان يخفي الدموع لكن العيون .. كل من حوله يشاهدون ما يحدث.. الاقارب يعرفون ماذا أخبره كبيرهم ، ظلوا جامدين كأصنام من ثلج ، لم يبد على وجه اي منهم أي عطف أو تأثر لم يحركوا شيئاً غير عيونهم التي ردت نظراته المتوسلة البائسة المستجدية بجحود وتنكر.

لم يسمح الكهل للفتى المنهك ان يغادر، عاد يهمس في أذنه ، لا يكاد الفتى يتوقف عن البكاء حتى ينهمر فيه مرة أخرى ، أخرج الكبير من ثنايا ملابسه أوراقا وصورا قديمة ، تناوب عرضها على عيني الفتى دون أن يسمح لها بمسكها ، عادت علامات الذهول تظهر على محيا الشاب الباكي ، أعاد العجوز الأوراق إلى المكان الذي اخرجها منه، ملامح الجميع جامدة ما زالت ، خرج الشاب مترنحاً باكياً ، لم يواسيه أحد ، لم يسأل عن الأمر أحد ، شعرت روحه بالصقيع والغربة ،

خرج ملفوظاً وإن لم ينطق أحد بذلك ، دارت الدنيا به تلك الليلة ، تغيرت كل الأشيا من حولة ، لقد هدم الكهل صرحه الفخور ، وحل ارتباطه الوثيق بجميع من معه ، لم يكن وريثاً للجد ولا وارثاً لطبائعه ، الحفيد أُخذ من بائعة جوالة بعد أن عبرت به وهو يصرخ منادياً على أمه ، لم يستدل له على أهل والبائعة قالت إنها عثرت عليه تائهاً في سوق الماشية ، فاتخذه الزوج المدلل فتىً يخبئ به عيب عدم إنجابه ، وعرفه للناس بذلك ، وشبهته أمه بجده الميت استمراءً في تصديق اصالة دمائه...

بأوراق وثبوتيات أخبره كبيرهم أنه ليس منهم في شئ ، وأنه ليس مستحقاً لمال أبيه الذي اطمأن إلى أنه سيؤول إليه .. اخبره أيضاً أنه غير مرحب به بعد الآن ، تغيرت الحال بعنف فجأة خرج الشاب التعيس مكباً على وجهه باكياً ، لا يدري إلى أين يذهب بعد أن لفظه الذين ربا بينهم ، وطرده المكان الذي نما عليه ، سار مثقلاً بالهم والحزن وفي رأسه حمى أسئلة تتحرك بداخلها كالأفعى .. يعلم أن نوايا المقربين ليست على ما يرام ، يعلم أنهم يكيدون له كما كادوا لأبيه وامه كثيراً من قبل طمعاً فيما آل إليهم واستكثارا لهم عليه ، لكن الآن ليس ثمة ما يثير الشك أو الريبة في ما عرضوه عليه وأخبروه به ... مضى الشاب بعيداً غير ماسوف عليه ولم يرى أبداً بعد هذا اليوم...

ألسنة السوء قالت إن ما جرى انما هو مخطط شيطاني لسلب ما سيرثه الفتى من أبيه الطائش وأن الفتى هو ابن العائلة الأصيل ، وأمه التي ماتت فجأة قبل أبيه بعام إنما قتلت مسمومة وحتى أبيه الذي انفجر شئ بداخله وهو يعبر طريقاً ذات ليلة مات على إثره إنما وضع له السم عنوة لقتله ... ترددت تلك الحكايات لسنوات وآمن بها الناس في صمت لكن لم يكن أحد ليجرؤ أن يصدح بهذا علناً كما أن الحفيد الذي غادر بلا رجعة لم يظهر له أثر رغم البحث المستمر عنه ... مضت السنون ومات كثير من الذين شهدوا هذا اليوم

لكن لم تخفت تلك الحكاية وباتت تروى علناً اضحت الحكاية عاراً يصيب كل أبناء تلك العائلة... لم يعد الحفيد المهضوم حقه ولم يخرج ماله من حوزة عائلته الظالمة أبداً ولم ينسى السلب الفاجر الذي فعلته العائلة ولم يخفت ذكره وبقي لعنة سوداء تلاحقها وكلما أراد المصابون لها موتاً زادوها استعاراً .. صمدت قصة الحفيد المظلوم عاماً بعد عام ، صارت عصية على النسيان" وذات مساء خرج ابن الكهل الذي دبر ما جرى وكان عليه شاهداً وشهيداً وهو يبكي فزعاً .. قال إن شبح الحفيد أيقظه الليلة من نومه وظل يضحك متوعداً إياه مع من خلفه بالموت... طلب من الناس أن يساعدوه لكي يصل إليه ليعطيه ماله من حق ويرجوه أن يغفر له .. لم يعد الرجل المذعور إلى بيته منذ هذه الليلة .. لأيام وشهور وسنوات ظل يبحث عن قريبه خائفا أن يكون متربصاً له في زاوية منسية او ركن مظلم .. هام على وجهه غير آمن دون ان يعثر عليه.. حاز أبوه مال ابن عائلته ظلماً لكنه فقد عقله بسبب ذلك .. كان يتوسل لكل من يعبر به أن يبحثوا معه عن قريبه الغائب .. ليطمئن ويعود لبيته وينام في سلام ... ما حدث أنهم لم يساعدوه .. وأنه لم يعد إلى بيته ولم ينم مطمئناً فيه أبداً ..

لقاء!

بجلاء.. يسمع صوت خطواتٍ رتيبة تنقر الطريق في فجر يوم مطير.. الشمس لم تبزغ بعد.. يدخن سيجارته الأخيرة قبل استلام نوبة عمله.. الحائط الضخم الذي يقف بجواره بللته مياه المطر بالكامل.. ما عادت هناك أي فرصة للاستناد عليه! صوت محركات الحافلات في الساحة الإسفلتية بالجهة المقابلة يبعث الحياة في المرآب الغارق بالمطر والصمت.. ما يزال ينفث دخان سيجارته..ياقة معطفه البني المرفوعة والقبعة الصوفية التي تغطي أذنيه وحاجبيه.. لا يسمحان بإظهار ملامحه بصورة جلية!

من بعيد لوّح له رجل يعبر الشارع إلى جهة موقف الحافلات.. فبادله التحية.. ألقى سيجارته في اسطوانة قمامة قريبة.. ثم هرول ولوجًا من باب حديدي مكتوب أعلاه بعدة لغات " متحف الأحياء الطبيعية ".. في قمرة زجاجية على يمين المدخل الرئيسي خلع معطفه وقبعته..انكشفت ملامح رجل خمسيني لم يأخذ الزمن من وسامته.. البياض المتوازن مع السواد في شعره الكثيف.. ملامحه الرزينة وعيناه الواسعتان.. قامته الممشوقة كل هذا أضفى عليه جاذبية خاصة!

هو- برغم ملامحه الهادئة - وقور محافظ.. يرفض كل ما يصطبغ بصبغة غير جادة.. الوقت يمر ببطء هنا لكن هذا لا يشعره بالضجر أو الملل.. لا يستهويه كثيرا المكث في الخارج.. لا يتبع نظامًامحددًا لكنه انعزالي جدًا وإن كان ودوداً مع الجميع!

تبدأ نوبة العمل هادئة في الصباح.. لا أحد يفكر في زيارة متحفٍ في هذا الطقس الماطر..الساعة الآن تخطت السادسة ولم تصل بعد للسابعة ليفتح المتحف أبوابه.. بخبرته كقاطع تذاكر دخول يدرك أن هذا الوقت مقتولٌ تماما! في الغرفة الضيقة لا مكان إلا لمقعد جلدي ودولاب أوراق معدني ومكتب صغير تناثرت عليه صحف وكتب عن التاريخ والسينما والهندسة.. ليس ثمة مساحة كبيرة للحركة.. أحدٌ لن يأتي الآن ليقف في الجهة الأخرى من الحاجز الزجاجي السميك.. ولن تمتد يدٌ بنقود طالبة تذكرة تسمح لها بالدخول.. لذا فقد استلقى على كرسيه دون عمل!

بعد ساعة.. فيما كان جالسًارافعًا قدميه على أحد أدراج الخزانة المعدنية..مستدبرًا المكتب.. مستغرقًا في قراءة كتاب.. مستأنسا بهاتفه المستقر على وركه صادحا بأغنية قديمة.. نقرت أظفار طويلة على الزجاج نقرات خافتة لم تكن بالقوة التي تسحبه من استغراقه.. أعادت الأظفار النقر بقوة أكثر قليلاً ومع النقر صوت لطيف:

- عفوًا! هل تسمح.. اعتذر عن الإزعاج!

سمع الصوت فأنزل قدميه سريعًاواستدار واقفاوهو يغلق الهاتف.. يعتذر للشابة التي يطل وجهها باسمًاخجلًا من فتحة دائرية في الحاجز الزجاجي..

- لا عليك.. أنا من عليه الاعتذار.. هل أستطيع المساعدة؟

توترت الفتاة قليلًا.. فركت يديها ثم نظرت إلى الأرض في ارتباك وهي تبتسم..

- أريد أن أنتظر شخصا ما هنا..هل هذا ممكن؟ هنا تحديدًا لا أريد الدخول.. أعرف القواعد!كان موعدنا في السابعة والنصف لكنه أرسل رسالة تقول انه سيتأخر.. والحقيقة الجو في الخارج لا يحتمل!

نظر الرجل مليًّاللفتاة.. لاحظ كل شئ بداعليها أو فعلته!بنظرة ترحيب هز رأسه مبتسمًاوأجابها بنبرة دافئة:

- نعم بالطبع.. على الرحب.. يمكنك الدخول إلى هنا.. الغرفة صغيرة لكنها دافئة..

لم يزل الخجل والارتباك مسيطرين على الفتاة.. ابتسمت وهي تشكره.. دخلت على استحياء.. أجلسها على المقعد وهو يرحب بعفوية ليرفع عنها الارتباك.. اتخذ من المكتب مقعدًا وهو ما يزال ينظر إليها وعلى وجهه ابتسامته الهادئة..

نحيفة هي.. ترتدي معطفًاأسودَ طويلا فوق بنطال رمادي وكنزة سوداء مضلعة لها ياقة عاليةتغطى رقبتها بإحكام.. تعلق قلادة على شكل وردة تدلت على صدرها من سلسلة فضية رقيقة.. حقيبة يدهاالسوداء اللامعة مستقرة على ركبتيها المتلاصقتين.. الصقيع الذي لفح وجهها لوقت غير قصيرأوجد حمرة على طرف الأنف والوجنتين..اكتسبت بشرتها الناصعة مسحة بريئة رقيقة.. شعرها البني المنتهي عند الكتفين يحيط بوجه طفولي وديع.. عيناها تأتلقان كنجمتين يزداد حسنهما كلما قصرتهما عنه خجلًا!

- حسناً.. سأطلب لك شيئًادافئًا.. هذا أكثر ما تحتاجينه الآن!

قالها الرجل قبل أن يخرج مغادرًا..لدقائقتخففت خلالها من أثقال الخجل المسيطر عليها وكونت انطباعا أوليًا عن مضيفها.. بينما عيناها تدوران في الحجرة الضيقة!

عاد الرجل حاملًا كوبين يتصاعد منهما البخار..تناولت الفتاة أحدهما بامتنان بالغ..وعاود هو الجلوس فوق المكتب حاملا الكوب الثاني بين يديه..

- حسنًا.. هل تأتين إلى هنا كثيرًا؟

ارتاحت الفتاة لإمساكهاأخيرا بخيط حديث قد يهون الوقت والموقف!

- في الحقيقة أنا لا أزور المتاحف كثيرًا.. ليس سوى الرحلات المدرسية! رغم أنني أحب هذه الأجواء.. وتستهويني رائحة التاريخ والحكايات الملحمية المكتوبة هنا وهناك.. لكن زيارة المتاحف لا تكون خياري الأول بكل أسف!

لم تبتعد عيناه عنها لحظة منذ رؤيتها.. رقتها الجارفة ولطفها الملحوظ يؤرجحان روحه!

- لكن.. من تنتظرين هنا في هذا الوقت المبكر والطقس البارد؟

- مممممم في الحقيقة أنتظر رجلًا.. من المقرر أنه سيكون خطيبي بعد وقت وجيز!

شئ ما من خيبة الأمل بدا في صوت الرجل وهو يقول:

- أها.. لقد حان الوقت إذن! أقصد وقت الحياة الجديدة.. خطبة وزواج وأولاد.. وقصة حب قبل كل هذا بالطبع!

- أنا الآن في الثالثة والعشرين ويمكن أن يكون هذا مناسبًا لتلك الحياة الجديدة..

رغبته في التحقق من شيء لم تقله جعلته يصوغ السؤال بطريقة أخرى:

- هل أنتما مرتبطان عاطفياً منذ وقت طويل؟

- منذ أربع سنوات تقريبًا..

- أها.. أربع سنوات كافية لبناء الثقة.. هو يحبك جدًا ولا شك!

زاغت عينا الفتاة وكأنها تلتقط من ذاكرتها ما يؤكد كلامها.. فجاءتنبرتهاشاردة:

- إن كان الحب هو أن يكون قلبه معي أنا فقط فهو يحبني كثيرًا.. وإن كان الحب هو الأنس والمهادنة وعدم التذمر والصراخ طيلة الوقت فهو لا يفعل!

- ولماذا التذمر والصراخ؟

- هو جادٌّ جداوأنا أتصرف بصبيانية..أهزر أحيانا وهو لا يقبل ذلك.. ألومه على الغياب والتأخرفيرى هذا وقاحة..

-هل تحبينه حقًّا؟

صمتت لبرهة ثم رشفت من الكوب رشفة تطيل بها وقت التفكر

- هو يحبني.. يغار.. لكنه يصلح سريعًا ما يفسده غضبه بداخلي.. ربما هذا كافيًالأحبه..

لم يسمع الرجل شيئاً مما قالته بعد ذلك.. شردبعيدًا وتعطلت كل حواسه وهو يرقب الحسناء تتحدث.. عيناها اللتان تومضان بكامل الرقة.. ابتسامتها الشفيفة.. نظراتها العِذاب.. صوتها الخافت.. كل مافيهابعثفيضًا من الأحاسيس المجهولة الدافئةليتدفق داخل صدره..استيقظ قلبه من نعاس طويل وتهيأت روحه للحياة! إحساس بالغ العمق والصدق يداعب روحه بعذوبة.. يوقظ خواطر مبهمة طواها الزمن منذ أمد بعيد.. يبعث خواطر شبابه البعيد وانطباعاته المنسية.. كلامها نظراتها صوتها التفاتاتها.. كل ما فيها يمس كل ذرة من ذرات جسده وكل نقطة تتشكل منها روحه! لم تكن فتاة عادية أبدًا.. هي سحرٌكامل.. فتنةٌ تامَّةٌ!لكنه لن يجرؤ على البوح لهابما فعلته به! كم يود أن يتاخر هذا المنتظر.. كم يود ألا يأتي أبدًاكي لا تغادر أبدًا! ألا يمكن للزمن والعالم أن ينسيا أمر الغرفة التي تحويهما؟! المسافة الصغيرة جدًّا التي تفصله عنها كانت في الواقع بعيدة جدًا.. لا يمكن قطعها في عمر كامل!

بدأ صوت الفتاة يظهر مرة أخرى وهو يعود من غمرة التفكير ففاجأها مقاطعًا:

- أنت أجمل وجه رأيته في حياتي!

عاد الارتباك للفتاة مع دهشة رسمت على وجهها..بحثت عن شئ ترد به لكنه لم يعطها فرصة:

- لست الأجمل فقط.. بل الأكثر عذوبة وطهرًا! أعرف أنه من غير اللائق أن اقول هذا الآن.. ربما أصبحت في رأيك مجنونًا أو عربيدًا يقتنص الفرص.. لكن أقسم لك أنني أكثر منك وعيًا بقدرتي العقلية.. وأنا جاد فيما أقول.. انت فاتنة ومثيرة للحب!

ما عادت تبحث عن ردود.. فقط تمسحه بنظراتها الحانيات.. وهو ما كان ينتظر ردًّا!

- أتعلمين؟ بداخلي يقين في أن ظهورك لم يكن عارضًا! كان معدًّا له بعناية.. كل ما فات من العمر كان تهيئة لهذه اللحظة.. ليس عندي أدنى شك في ذلك!

اتسعت عيناها الحلوتان.. ترقرقت عبرات زادتهما فتنة!

- يا الله! الخلاص من أثرك لن يكون سهلًا أبدًا!

صمت الرجل فجأة.. نهض مواجها الحائط الزجاجي.. زفرة قوية دون أن ينطق.. فاجأته يد الفتاة تتهادى على كتفه.. استدار مستجمعا ذاتهمستعيدا هيئته التي كان عليها قبل ساعة قائلًا..

- أنا لا أثرثر هكذا عادة إلا عندما أشعر بشيء من السعادة!

- هل ستصدقني إن قلت لك إنني لا أريد أن أغادر هذه الغرفة؟ هل تصدق أنني أشعر بأمان أفتقده من زمن بعيد؟

ارتسمت الدهشة على وجهه دون أن ينطق..

- لقد مسني كل ما قلته وسكن بداخلي.. أنا فعلا سعيدة أن جعلتك تثرثر بسعادة!

- ستغادرين الآن وسينتهي كل شئ..

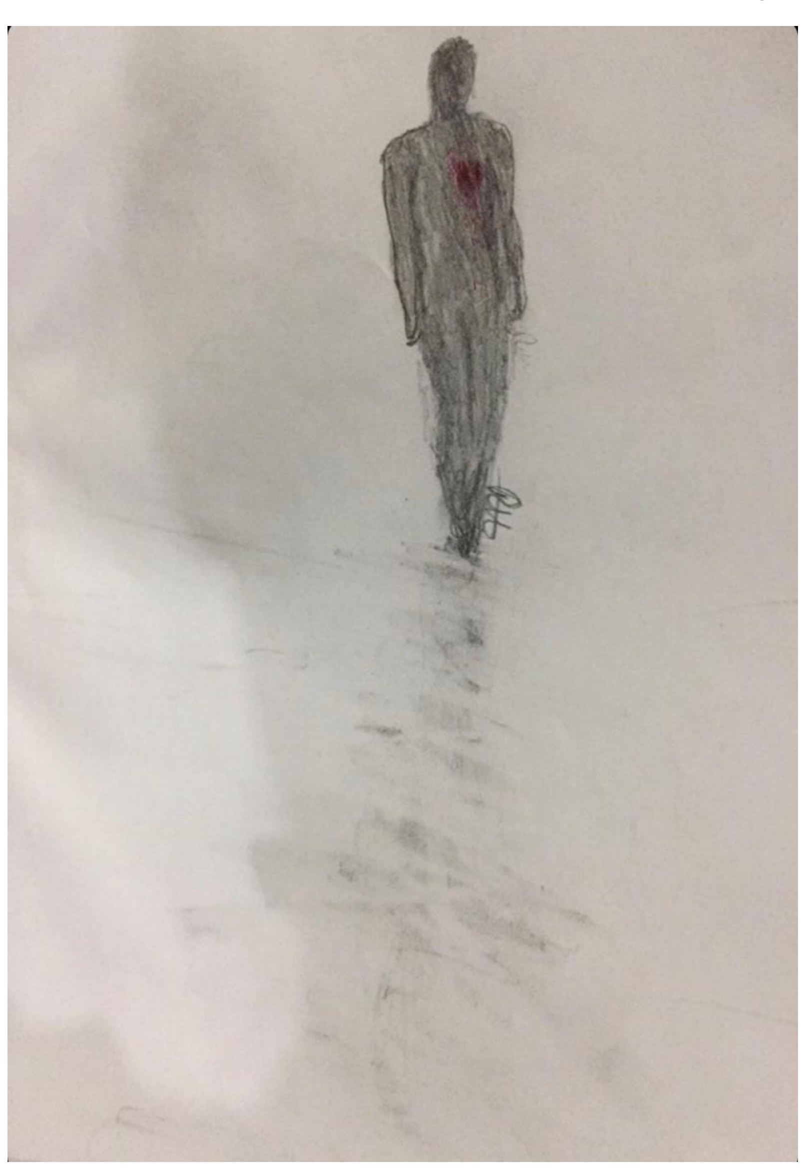
- سأغادر الآن.. لأعود لاحقًا.. ربما!

جرس هاتفها يواصل الرنين منذ دقائق ولا ترد..

قبل أن تغادر..أحاطت وجهه بكفيها العاجيتين الباردتين.. غاصت بعينيها في عينيه.. بقبلة وعناق دافئ أنهت اللقاء العابر.. وانصرفت!

غادرت.. تاركة بداخله هوة سحيقة.. وخوفًا من تعب لانهائي سوف يعقب حبًّا سطع في قلبه وقتا قصيرًا.. لكنه يساوي عمراً بكامله!

في الجهة المقابلة من الشارع كان شابٌّ ضخمٌ ذو لحية كثة يصرخ في وجهها.. يتفجر غضبًا وهو يشير إلى هاتفه.. ثم ابتعدت سيارة تحملهما واختفت كليًّا عن ناظري رجلٍ خمسيني واقف بذهول على باب متحف!



السقوط للأعلى

طلبت التظلل هرباً من جو القرية الساكن الممل الحار .. هكذا يكون كل يوليو حاراً كئيبا ..... كانت تلك الساعة التي يركن فيها الناس عادة إلى المقيل ، وحبذا لو سرى الهواء المرسل من الحقول البعيدة حولهم وهم ممدون بكسل ، لهذا كنت أجد أبواب البيوت ونوافذها مشرعة في هذا الوقت ليمر النسيم بين الأبواب المفتحة فيكسر قتامة الحرارة الخانقة .... وحيدا أعلى المنزل أطل على البيوت الصماء وهي غارقة في سكون مهيب وكأنما فارقت الحياة لوقت معلوم، لا أمارس نوم الظهيرة عادة ، أفضل الجلوس والمتابعة واكتشاف أي أمر طارئ أو مستجد ، شق صراخ فجائي أجواء بساط الصمت وانتهك السكون الذي ابتلع القرية منذ مدة ، تلا الصراخ صوت همهمات لأناس يركضون على غير هدى صوب الجهات المحتملة، من بعيد تعالت أصوات متداخلة ،.. " لا إله إلا الله ".. " كيف وقع ..؟" .. هل مات.؟" .. "لا تحركوه بقوة" .... "استدعو طبيب الوحدة الصحية سريعا " ... تسارع وتيرة الركض الشوارع تصبّ الناس في ساحة متطرفة لا يعلم ما حصل بها إلا الجمع الذي يتكاثر بها الآن ، أيقنت أن ثمة فاجعة ، مسرعاً نزلت الدرج هرولت حافياً مسترشدا بطنين أهل القرية الذي لا يهدأ، وصلت إلى الساحة المكتظة عن آخرها بأناس كانوا يحوقلون في دهشة، اخترقت الجموع ، وصلت إلى البقعة التي تشخص إليها الأبصار في وجل، لن أنسى هذا المشهد أبداً.. جثة ضخمة حافية تتمدد على الأرض بجلباب صوفي مخطط مرفوع بانثناء إلى مستوى البطن كاشفاً عن ساقين كثي الشعر لونهما أفتح كثيرا من لون الوجه لحية سوداء خفيفة لم تحلق أبدا من قبل مع شارب تطول شعراته عن حد الشفاة منثنية جهة الفم أنف طويل مدبب قطرة من دم متجلطة، حدقتان متجمدتان في أعلى العين جعلتا الوجه ثابتاً على حالة النظر إلى السماء وفم مفتوح بنصف اتساعه راسما على المحيا ابتسامة سلام عجيبة ...

قبل ذلك بنصف ساعة...

في منزل حديث البناء يقف وحيدا على حافة ساحة ترابية بارتفاع ثلاثة طوابق نصبت جدرانها من قرميد أحمر تتخللها أعمدة خرسانية في قمتها أسياخ حديدية ستكون أساس أعمدة للطابق الرابع عممت بأكياس من بلاستيك سميك حماية لها من الصدأ ... علا صوت زوجة الأب بسبابها المعتاد لابن زوجها الذي يعاني التوحد وعدم الاتزان الحركي إضافة إلى خوف غريزي من الناس .. هو في منتصف عمره لكنه لا يندمج مطلقاً في أي مجتمع.. ليس عدائياً لكن الاقتراب منه ليس أبدا ضمن مقبولاته ...كما أن حوادث عدة وقعت جعلوه بسببها لا يبرح المنزل أبداً ، فكان يطل على العالم من نافذة غرفته أحياناً أومن أعلى مبناهم الجديدة وكان يحدث بصورة دائمة ، في رابع سنيّ عمره ماتت أمه بكمد ...ولم تكن زوجة الأب تملك له من الحب أكثر مما تحمله أنثى الصقر لبيضة طائر غريب ، سطوتها أقوى من سطوة الاب فظاظتها المستمرة جعلت حالة ابن الزوج تتعقد وخوفه من الناس يزداد وحالته العقلية تسوء، وها هو الآن يتسمر مرعوباً حاملاً بين كتفيه جوالاً من الرمل ، فيما تواصل هي الصراخ والجذب ليرتقي به درجات السلم صعوداً إلى سطح المنزل .. وتحت نير الصراخ والتهديد والضرب صعد .. صعد مترنحاً ثم وهو يستدير في إحدى انحناءات السلم غير المسوّر ، شدت الجاذبية جوال الرمل الثقيل على ظهره فهوى به وهو يحملة

تشابهت انا وهو في جلسة العليّة .. وان اختلفت أسبابنا إلا أننا اعتدنا أن يرى أحدنا الآخر كل يوم ، في الصيف القائظ أو الشتاء البارد ، لا يغيب ولا أغيب إلا قليلاً ، لم نتحدث أبداً بحكم عزلته وخوفه من الناس ، لكن تلويحاتنا كانت لغة إشارة تعارفنا بها وتقاربنا ثم صرنا صديقين حميمين ، قد يجلس لساعات شاخصاً للبعيد دون أي حراك ، يتقافز بغير اتزان إن ظهرت أمامه تلك كانت طريقته في الترحيب أو إلقاء التحية ، أرفع ذراعي للأعلى وأحرك أصابع كفيّ بتموجات نصف دائرية متناسقة والتي تعني " كيف حالك.؟" فيمسح كفيه بعضهما مرتين أو ثلاثة إن كان الحال لا يسر أويرفع قبضتي يديه في الهواء إن كان راضياً وسعيداً... لم أعتد على أحد مثلما اعتدت عليه ، لم أصادق أحداً كما صادقته ، ذات يوم أشار على إحدى ساقيه ثم رفع سلكاً معدنياً ،

فهمت من التألم البادي على وجهه المرهق أن زوجة أبيه أوقعت عليه عقاباً ما بالكهرباء، أفزعني الأمر ، هرولت إليه وأنا أعرف أن وصولي إليه مستحيل ، قرعت الباب لم يفتح لي أحد ، صرخت منادياً ، أخرج اباه رأسه من شرفة علوية ، أخبرته بما رأيت ، لم يرد .. سحب رأسه للداخل وأغلق النافذة ، ظللت أصرخ بكل قواي ، بدا البيت كقلوب ساكنيه جامداً ساكناً وكأنما لا حياة فيه ومن أعلى المنزل أطل صديقي المنهك شاحباً وعيناه تذرفان الدموع ، كم كان ثقيلاً عجزي ، تهاوت عزيمتي وعدت هارباً من عيني هذ البائس الذي كنت أنا ولو للحظة أمله الوحيد في الخلاص، كل من حولنا يرونه خطيراً وغير مأمون الجانب لم يكن سهلاً أبداً أو متوقعاً أن تسري فكرة أخرى في عقولهم .. لم يكونوا مستعدين أبداً لتصديق أنهم هم مرضه الوحيد وأنهم حين نبذوه وسخروا منه جعلوه ميتاً بقلب نابض ، ليس محتملاً أبداً أن يساعدني أحد في إخراج المسكين من هذا الجحيم..حاولت كثيراً ولم أفلح ...

وياللسخرية فكل الذين يشاهدونه الآن وقد أضحى جثة هامدة يشعرون للمرة الأولى بالشفقة نحوه حتى زوجة أبيه تبكي وهي تضع على رأسها التراب... أما أنا فقد رأيت سقطته القاتلة تلك صعوداً إلى جنة الله الأرحب .. إذ هناك فقط سينسى قسوة كل تلك السنين...

خلخال أزرق

السابعة صباحاً .. ها قد وصل قطار الأنفاق في موعده... بعد صرير طويل معتاد للعجلات فتحت الأبواب وانهالت الحشود على الرصيف باندفاع لا يتوقف... الرصيف العريض بشكل يسمح باستيعاب أكبر عدد ممكن من المسافرين الرُحَل يفصل بين الأخدود الحديدي الذي يعبر منه القطار وبين مقاه متجاورة لا يفصلها او يميزها سوى اختلاف طراز المقاعد المتراصة أمامها ... على النُضد المتجاورة يتناثر بعض ممن لديهم وقت لاحتساء أو التهام شئ سريع ... محطة القطار النفقي تلك تتوسط شارعاً رئيسياً في المدينة لهذا فالزحام لا يبرحها لا سيما في مثل تلك الساعة منذ ١٠ دقائق طلب أحد الخارجين من باب القطار فطوراً سريعاً وقدحاً من القهوة.. الرجل متعجل جداً فهو يطالع ساعة يده مرة كل دقيقة تقريباً .. ملامحه الجادة ووقاره الذي لم تأخذ العجلة منه شيئاً يقولان إنه ذي حيثية مرموقة ... كذلك تقول نفس الشئ بزته الداكنة وربطة عنقه المعقودة بإحكام على قميص زهري ناصع اغلقت أطراف أكمامه بحلية ذهبية وحذاءه المدبب والذي لا تظهر الأوساخ حتى على سافله وحقيبة يده الأنيقة ...

يرمي الرجل الذي يأكل كعكة ويرشف القهوة على عجل عينيه على القطار النفقي الذي وصل قبل لحظات ... ثمة شئ يشغل عقله وهو يطالع الأقدام الكثيفة التي تركض وتهرول في عشوائية منظمة فيما يواصل فمه قضم أطراف الكعكة ... نظر في ساعته ثم بدا على وجهه وكأنه حان الوقت للذهاب فأمسك حقيبته متعجلاً بيد وهو يقف ثم باليد الأخرى وضع ما تبقى من الكعكة في فمه ... لكن فمه لم يغلق ..كما لم تغلق عينيه... وسقطت الحقيبة من يده ...وانهال بكل ثقله على المقعد..هناك شئ ما حدث ... شئ يشبه الصدمة العنيفة... لقد وقعت عيناه على خلخالٍ أزرق ملفوف حول ساق مرمرية تمشي صاحبتها الحسناء ذات القوام الأنثوي متناهي الكمال والملامح التي استوطن بها الحسن سالماً مطمئناً بخيلاء رقيق وسط الزحام وكأن لا أحد حولها في المحطة ... وكأن لا أحد حولها في العالم كله ... لم تلمع عيناه المفتوحتان فحسب.

لقد اهتز كيانه بشدة ... أصيب في مكان ما بداخله لم يصب فيه من قبل... أصيب فيه تماماً ... ساق الخلخال تتحرك أمامه بكل وضوح رغم الزحام ... لشدة نصوعها كانت القدمان تبدوان مختلفتان جداً ..فيما العينان تلمعان بوله شغوف وهما تتابعان الخطوات الناعمة للقدمين المضيئتين كأنت أنفاسه تتعالى وجبينه يتعرق ... قوة رهيبة جعلت قلبه يكاد ينفجر من شدة النبض... رغم الصخب والضجيج المتداخل كان نقر الخطوات الواثقة المتهادية للقدمين المثاليتين اللتين اعطاهما الخلخال الأزرق فتنة سقطت بكل قوتها على قلبه مسموعاً بوضوح .. لم يحدث له ما يحدث الآن من قبل.. أي سطوة بل أي لعنة قذفتها تلك الحسناء عليه... نظرة عينيها الشرقيتين واثقة لا يعتريها أي شك كنظرة نسر تحط مخالبه بهدوء على أرنب عالق ... لم يكن الأرنب غير هذا الرجل الذي لا يقوى حتى على النهوض من مقعده دون أي اكتراث لأمره...

توقف نقر الخطوات التي عبرت كحلم سعيد غير مكتمل.. اختفت الحسناء ذات الخلخال الأزرق فجأة ... هنا نهض الرجل مفزوعاً ينظر لأبعد ما يمكن لعينيه أن تصل ليعود النظر خائباً إليه .. ذابت الحسناء في غفير الموج الهادر للخارجين من المحطة ... ركض في نفس الصوب الذي سارت إليه... اخترق السائرين وهو يبحث عن ضالته كأم تفتش عن وحيدها وسط زحام غريب .. انتهى الركض عند سلم الخروج من المحطة ... حيث الشارع الرئيسي في الأعلى .. لم يتوقف .. أكمل الركض صعوداً نحو الطريق ثم وحين أصبح في الأعلى نظر يمنة ويسرة .. هنا وهناك ... في هذا الجانب... في الجانب المقابل... لا أثر للحسناء ... اختفت كلياً ..

إلى حيث كان يجلس عاد الرجل ... جلس لكن بحال غير الحال التي كان عليها منذ بضع دقائق ... هائماً شارداً حزيناً القى بنفسه فوق المقعد .. فك ربطة العنق طلباً للهواء .. ما عاد مشغولاً بالوقت .. توقفت عادته المتواصلة بالنظر المستمر في ساعة يده ... النادل الذي ظن أنه غادر دون دفع قيمة الفطور وقف فوق رأسه يسأله ما إذا كان يريد شيئاً آخر أم سيكتفي بما أخذ ... نظر الرجل الشارد إلى وجه النادل وعلى وجهه بؤس مستديم ثم ألقى بيديه على الطاولة ومن فوقها وضع رأسه وكأنها تحمل ثقلاً أنهكه فما عاد قادراً على حمله ..غادر النادل مستغرباً دون أن يصدر أي تعليق... مر الوقت ... لم يبرح الرجل مكانه منذ ساعتين ..

بل لم يغير جلسته التي تركه النادر عليها ... توقفت عشرات القطارات كثر غادروا وقدموا من المحطة وإليها والرجل المسحور بذات الخلخال الأزرق لم يخرج عن حالة البؤس والشرود وكأنما توقف به الزمن على تلك الحال

ساعات مرت .. النادل في النوبة المسائية يسأله للمرة الثالثة إن كان يريد شيئاً وكما كل مرة لا يرد ... المعطف الداكن ملقى بإهمال على الطاولة .. الحقيبة على الأرض العينان تنظران بأمل للمرة الألف إلى القادمين كلما علت أصوات خطوهم علها تكون من بينهم .. النادل المرتاب من الرجل الغامض صار فظاً هذه المرة إذ طلب منه بصراحة أن يغادر ... هدده باستدعاء الشرطة .. لم يعره أي انتباه وواصل البحث بناظريه وسط ثلة من القادمين

لم يغمض له جفن طيلة الليل .. بدا على وجهه الإرهاق والإعياء في ساعة الذروة الصباحية حين توقف القطار الذي كانت الحسناء تركبه في ذات موعد الأمس وقف وهو ينظر بتفرس قدر ما ساعدته قدرته في وجوه النازلين وأقدامهم .. من يدري لعلها تعود إلى بيتها بالعربة وتذهب إلى عملها بالقطار .. لم تظهر في هذا القطار ولا الذي بعده ولا في عشرات القطارات الأخرى التي توقفت في المحطة ..

جالساً على الأرض بعد أن القاه النادل الفظ بعيداً عن المقهى ومصاباً بالانهيار الكامل كان الرجل يتمتم بدعوات أن تظهر الحسناء التي سلبت روحه وغادرت بها إلى مكان غير معروف .. يحتاج ذلك الآن إذ لم يعد قادراً على الانتظار .. لقد خارت قواه واستقوى يأسه وسقطت آخر حبات عُقد الأمل ... القطار القادم ربما هو آخر قطار يملك قوة الصعود إليه.. لا مناص إذن .. بجهد بالغ استطاع الرجل المترنح أن يقف ... خطا بكل ثقله عبر الباب الذي فتح أمامه مباشرةً وفيما كان يلقي بنفسه منكساً ملؤه التعب على مقعد القطار وهو يبدأ التحرك كانت الحسناء ذات الخلخال الأزرق تجلس على ذات المقعد الذي كان يشغله وهي تطلب من النادل الفظ قدحاً من القهوة.



المؤلف فى سطور



- محيي الدين جاويش
- صحفي وإعلامي مصري
- تخرج من قسم الإعلام بكلية اللغة العربية / جامعة الأزهر عام ٢٠٠١
- عمل في عدد من المؤسسات الإعلامية العربية
- تنشر له مقالات في صحف ومطبوعات عربية
- أسس وعمل مديراً للتحرير لعدد من الصحف الكويتية
- حالياً هو رئيس التحرير بتليفزيون المجلس في دولة الكويت
- له أطروحات ساخرة تنتقد ظواهر إجتماعية سلبية
- له كتابات قصصية وشعرية ونثرية تنشر على المدونات الالكترونية الخاصة
- صدر له " صباحات الياسمين " عن دار الهلال في ديسمبر 2018


كتاب الهلال
صباحات
الياسمين
محيي الدين جاويش

"صباحات الياسمين" للكاتب محيى الدين جاويش

الكتاب "جامع لخواطر رومانسية ذات مغزى عاطفى وممارسة لصنع الكلمات الجميلة التى تنطق بالمشاعر الإنسانية الصادقة يقدم فيها الكاتب بعضا من فيض روحه حسب مرئياته لتلك العاطفة ويدعو القارئ للمشاركة فى تأملها بل ومعايشتها فهو يعبر بأقصوصات خفيفة، حيكت بحروف ناعمة عن تلك المشاعر والأحاسيس الساكنة فى وجدان القارئ فكانت هذه الخواطر تعبيرا رائعا عنها مستندا على لغة تبتعد عن عالم الواقع المكتظ بالزحام والضوضاء إلى رحابة الخيال الجميل وعالم الأحلام والتأملات الشاعرية بلغة بسيطة سلسة مختصرة مليئة بكلمات تصلح للتعبير عن المعانى الجميلة".

ويقدّم «جاويش» كتابه بأنه: «للنبض المخبأ داخل الصمت.. لـ«أحبك» التى ألوذ بها وأنا أرددها سرا ... لصوتك الذى يفعل بى ما تفعله الشمس بالصباح ... لضحكتك البعيدة التى تملأ المسافة بيننا بالنور والفرح ... للسكر الذى ينسكب من شفتيك فى الفنجان ... للحنين المخبأ لك فى عروق الشوق ... لجسورى الممتدة إلى قلبك.. لعبق حضورك الآتى من جنة أخرى... للكون الأضعف من أن يتحمل وهج حسنك ... لصوتك الذى يتمايل على أهداب حلم رائع ... للصباح الذى يستل أنفاسه من ثغرك ... لابتسامتك التى تراقص الفراشات والألوان ... لروحك الرقيقة كياسمينة حطت على خدها قطرة مطر ... لموطئ شفتيك على حافة فنجان محظوظ... لصوت صمتك الذى أسمعه بكل وضوح ... لكفك المرمرى الذى ترفض خطوطه البوح للعرافة ....لقلبى المعلق بك كمركب مقيد لايملك أمام الموج الغاضب أى قرار.. صباح الخير».

المحتويات